الأب جان پاول اليسوعيّ

# ها أنذا واقفٌ على بابِكَ أقرعُه

دار المشرق

**ها أنذا واقف على بابك أقرعه** كتيّب يطرح على المرء سؤالاً أساسيًّا: ماذا يعني لك يسوع المسيح؟ ذاك الذي أتى العالم منذ ألفي سنة ليدعو الناس إلى الحبّ، ويشفي كلّ من فيه مرض. إنّه يقف اليوم على بابك يقرعه، فماذا عساك أن تقول له؟

هذا الكتيّب هو طرح متواضع ومبسّط لموضوع كبير، علّه يساعد على التأمّل في مَن هو يسوع المسيح وما هو مضمون رسالته. إنّها أمور تفوق الطبيعة وتتخطّى حدود العقل، ومع ذلك فإنّه يطرحها على عقلك وقلبك لتتأمّل فيها بتواضع وانفتاح على صوت الروح.

فإذا كنتَ مؤمنًا، آمل أن يساعدك على التعمّق في إيمانك والترسّخ فيه. وإذا قرّرت أن تفتح عقلك وقلبك للمرّة الأولى لتصغي إلى ذاك الذي يقف الآن على بابك يقرعه، فيمكنك أن تجد في هذا الكتيّب ما ينير لك الدرب.

أرجو ألاّ تقرأ هذه الصفحات دفعة واحدة، بل خذ ما يلزم من الوقت وتأمّل برويّة في ما تحمله إليك. وحاول أيضًا أن تتخطاها إلى قراءة في الإنجيل أوسع وأعمق. فهو يقدّم إليك الصورة الأكمل والأوضح عن هذا الإنسان الذي جعل الأخرس يتكلّم، والأعمى يبصر، وأقام ابن الأرملة من الموت ... وفي آخر المطاف قام هو أيضًا بعد أن مكث في القبر ثلاثة أيّام.

إنّه يقف الآن على بابك يقرعه، فماذا عساك أن تقول له؟

ISBN -27214-1122-5
9782721411228

منشورات:
دار المشرق - ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠، لبنان

التوزيع:
المكتبة الشرقيّة ش.م.ل.
ص.ب. ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان

جميع الحقوق محفوظة، طبعة أولى ٢٠٠٤
دار المشرق ش.م.م.
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠
لبنان
http://www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-1122-5

التوزيع: المكتبة الشرقيّة
الجسر الواطي - سنّ الفيل
ص.ب: ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان
تلفون: ٤٩٢١١٢ - ٥/٤/٤٨٥٧٩٣ (٠١)
فاكس: ٤٨٥٧٩٦ (٠١)
Email: libor@cyberia.net.lb

صدر هذا الكتاب بالإنكليزيّة تحت عنوان:
*A Stranger at Your Door*
John Powell
English Language Copyright 1997 ST PAULS, UK – Eire
Produced in the EU
Printed by the Guernsey Company Ltd.

## فهرس المحتويات

ها أنذا واقف على بابك أقرعه ..... ٥

الفصل الأوّل: السؤال الكبير ..... ٩

الفصل الثاني: الجواب عن
السؤال الكبير ..... ٢١

الفصل الثالث: العميان يبصرون
والصمّ يسمعون ..... ٥١

شفاء مقعد في كفرناحوم ..... ٦٣

إحياء ابن أرملة نائين ..... ٦٩

إحياء لعازر ..... ٧٨

«بعد ثلاثة أيّام سأقوم» ..... ٩٣

الفصل الرابع: ملكوت وكنيسة ..... ١٠٩

الفصل الخامس: الجماعة المسيحيّة ..... ١٣٥

## ها أنذا واقف على بابك أقرعه

منذ العام ٣٠ بعد المسيح، ظهر في تاريخ البشريّة حَدَثٌ جديد، فرض على كلّ إنسان عرفه اتّخاذَ قرارٍ أساسيّ في شأنه. فمنذ ذلك الحين، ما من شخص، في العالم المسيحيّ، مهما كان شأنه، قرّر أن ينظر بعمق في مسيرة حياته والمستقبل، إلّا وأعار بعضًا من الاهتمام لما جاء على لسان يسوع الذي من ناصرة الجليل.

وما تقدّم به ذلك الجليليّ ليس بسهل المنال، ولا هو يَعِدُ بحياة من الترف والعيش المُريح، بل إنّه متطلّب ويرفض أنصاف الحلول. إذا ما قبِلتَ يسوع جزئيًّا فأنتَ رافضٌ إيّاه. فلقد قال يومًا، وفي قوله شيء من الراديكاليّة:

«مَن ليس معي فهو عليّ».

إنّ كلّ إنسان عَرف المسيحيّة عن كثب،

وتعمّق في حقيقة يسوع المسيح، وجد نفسه أمام قرار وجب عليه اتّخاذه، عاجلًا أم آجلًا، يقضي بأن يسير على هدي نوره أو يعرض عن نهجه. إنّه قرار في غاية الأهمّيّة، إذ قد يترك أثرًا بالغًا في حياتك وحياتي، كما في حياة بائع الجرائد، وحاكم المنطقة، والشخص المسنّ الذي يسند ضعف ساقيه بعصا، والشابّ الذي يرقص طوال الليل على وقع موسيقاه الصاخبة... وأثره هذا سيكون باديًا في هذه الدنيا كما في الآخرة.

فالكتاب الذي بين يديك هو بسط متواضع لحدث يسوع المسيح ابن الله المتجسّد بحسب إيمان كلّ مسيحيّ. هو الذي جعل الأخرس يتكلّم، والأعمى يبصر، والمقعد يمشي، هو الذي أقام ابن الأرملة من الموت وردّه إلى أمّه... بل «كان يسير في الجليل كلّه، يعلّم في مجامعهم ويعلن بشارة الملكوت، ويشفي الشعب من كلّ مرض وعلّة...» (متّى ٤/٢٣).

إنّ تلك الحقائق تتطلّب درسًا معمّقًا ممّن تقبّلها كي يترسّخ عيشه فيها. أمّا ذاك الذي يقف أمامها مترددًا، فهو أيضًا مدعوّ إلى أن يمعن النظر فيها، علّه يتقبّل بدوره نعمة الإيمان التي تقود به



إلى الالتزام في كنيسة المسيح التي هي «أهل بيت الله».

**ها أنذا واقفٌ على بابك أقرعه** موجّه إلى هؤلاء وأولئك، علّه يزيد حياتهم فرحًا وقداسةً في يسوع المسيح. وهو لا يصبو إلى فرض نهج أو الحثّ على اتّخاذ قرار، فتلك أمور تبقى برمّتها رهن حرّيّة كلّ إنسان. ولكن إذا ما وجدتَ في هذه الصفحات ما يشدّك إلى هذا النهج أو يحثّك على اتّخاذ قرارك، تكون في ذلك قد تحقّقت أمنيتي من وضع هذا الكتيّب.

لذا أرجو ألّا تمرّ بهذه الصفحات سريعًا، بل تأمّل فيها «وسرّ إلى العمق» مصلّيًا، علّك تجد، في الصلاة والتأمّل، غنًى جديدًا. وعلّها توقظ فيك أفكارًا تترك في نفسك آثارًا عميقة، من شأنها أن تدفعك إلى اتّخاذ قرار قد يُحدث تبديلًا بالغ الأهمّيّة في حياتك.

أن تنظر عن قرب في ما يتطلّبه منك يسوع المسيح، فذلك ليس بمهمّة سهلة. والصوت الذي قد يحثّك على التسويف أو الهروب، قد يكون قويًّا. ولكنّك إذا ما انصعتَ له، وضعتَ حدًّا لمسيرة قد تقودك في ربيع تحمل إليك

أزاهيره أريجًا ليس من هذه الدنيا، وتشعّ عليك من سمائه أضواءً تنير لك الدرب في دنياك والآخرة.

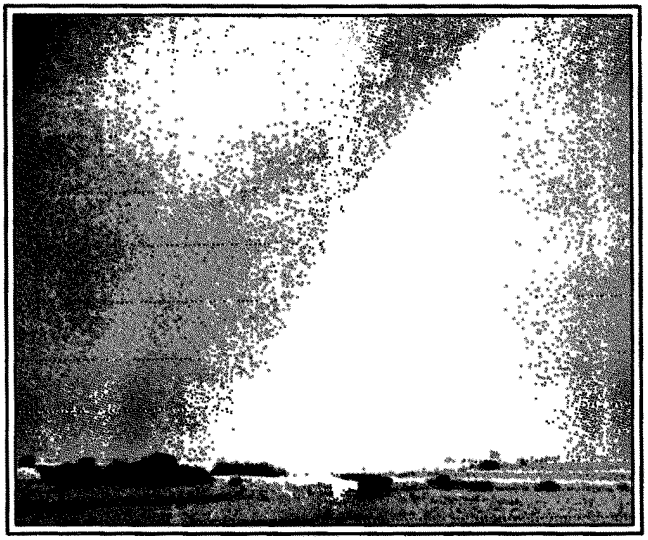

«تلك قوسي جعلتُها في الغمام فتكون علامةَ عهدي بيني وبين الأرض. ويكون إنّه إذا غيّمت على الأرض وظهرت القوس في الغمام، ذكرتُ عهدي الذي بيني وبينكم وبين كلّ نفس حيّة في كلّ جسد...»
(تكوين ٩/ ١٣ - ١٥).



الفصل الأوّل

# السؤال الكبير

منذ نحو ألفَي سنة ظهر في فلسطين نبيّ يهوديّ، فتضاربت في شأنه آراء بني قومه. كان ابن نجّار من الناصرة ودُعي يسوع، بيد أنّه اجترح من المعجزات ما لم يفعله سواه عبر التاريخ، وتفوّه بكلمات أذهلت عقول الناس. أطلق في مواقفه كما في كلامه تحدّيًا لا بدّ وأن يؤخذ على محمل الجدّ. وقد طرح على تلاميذه سؤالًا كبيرًا ما زالت أصداؤه تتردّد على مسمع كلّ امرئ، وهو ما انفكّ يقرع باب كلّ قلب ساهر ويسائل عقل كلّ إنسان:

مَن أنا في نظرك؟

السؤال يتخطّى حدود الزمان والمكان ليطرح نفسه على كل امرئ أينما حلّ، وفي أيّة

حقبة من الزمن. إنّه موجّه إليك وإليّ. لا يمكننا أن نتجاهله ولا أن نتناسى قول يسوع في أنّه: «ما من أحد يأتي إلى الآب إلّا بي».

مَن أنا في نظرك؟

كيف تراني أجيب عن هذا السؤال وأنا في خلوة حميمة مع نفسي؟

في مدينة نيويورك يجلس رجلٌ أمامه كأسه وبين أنامله سيجار وعلى لسانه حديث عن البورصة. وفي باريس فنّان يحلم بلحن يعرب فيه عمّا يختلج في صدره من حبّ وقلق.

وها هو الفخر يغمر قلب فلّاح يشقّ محراثه الأرض في صعيد مصر وكأنّ الزمن هناك قد توقّف.

وفي قرية نائية من قرى جبل لبنان سيّدة مسنّة تحبك بسنّارتَيْها الخيوط برشاقة ودقّة.

وفي سماء المحيط طيّار يمتزج في آذانه هدير محرّكات ضخمة بأنغام الموسيقى الناعمة.

وها هو شابّ يثقل كاهله كابوس داء السيدا وقد أُقفلت في وجهه أبواب الحياة.



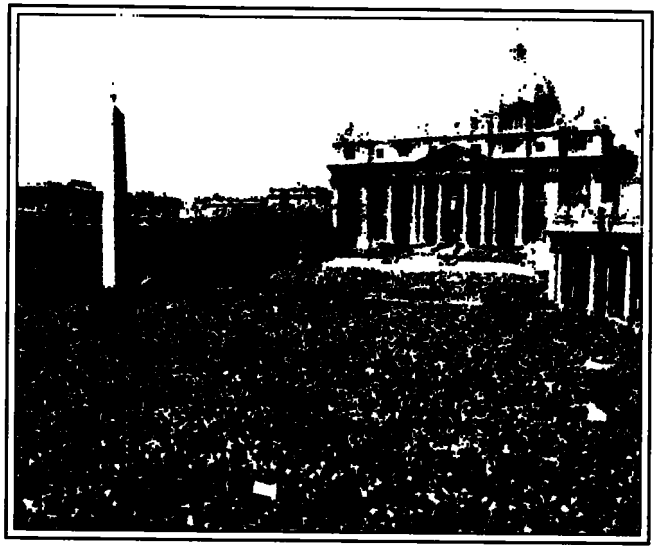

لهؤلاء الناس جميعًا، بل لكلّ مخلوق في الكون، موقعه في قلب المسيح.

وهنالك دفق من الأمل في نفس شابّ من سيدني، وآخر في جامعة لندن، وغيرهما في أنحاء الأرض قاطبة.

لهؤلاء الناس جميعًا، بل لكلّ مخلوق في الكون، موقعه في قلب المسيح، كما أنّ لك أنت ولي أنا موقعنا هناك، بيد أنّ مشاغلنا قد تحول دون وعينا ما لنا من مكانة في قلب الله. فنعمة المسيح تعمل من خلال يد كلّ من هؤلاء الناس، ومحبّته تخفق في قلوبهم جميعًا، تمامًا كما الروح يعمل فيك وفيَّ، وكأنّ صوتًا يهمس في عمق نفس كلّ منّا قائلًا: ها أنذا واقفٌ على بابك أقرعه.

هو يقف على كلّ باب وراءه قلب ينبض. وهناك ينتظر بصبر... قد يقصر الانتظار أو يطول، ويبقى السؤال المطروح هو هو:

مَن أنا في نظرك؟

كلّ من عُظماء هذه الدنيا عاش صراعه الخاصّ مع مصيره، والتساؤل عمّا قد تؤول إليه حياته. ولكن وحده مَن كانت له قناعات راسخة بشأن المستقبل يمكنه أن يعشق الحياة من دون أن



تخيفه فكرة الموت، وفي مقدّمة هؤلاء مَن أجاب عن السؤال الكبير الذي يطرحه عليه يسوع المسيح.

بيد أنّه بإمكاننا أن نتجاهل هذا السؤال، ولكن ذلك سيترك في أنفسنا آثارًا بالغة وهدّامة. وهنالك أجوبة متعدّدة، وقد يأتي بعضها مخطئًا، وقد يخلّف مثل هذا الخطأ جوعًا في النفس، يتسبّب لها بضعف يؤول بها شيئًا فشيئًا إلى ما يشبه الانهيار.

إنّه ليس من الحكمة أن تلقي فقط على هذا الغريب الذي يقرع بابك نظرةً سريعةً فتصدر عليه حكمًا متسرّعًا قد يكون مخطئًا، لأنّ مثل هذا الخطأ مكلّف جدًّا.

بإمكاني أن أنتصر على الفشل في غالب الأحيان، شرط أن تتوافر في نفسي إرادة للانطلاق مجدّدًا. وهذا شأن السياسيّ الذي أخطأ التقدير، ولكنّه أعاد الكرّة بكلّ ثقة، فعاد وربح ثقة الناس. وهذا أيضًا شأن الممثّل الذي خذله جمهوره بسبب من ضعف أدائه، ولكنّه عاد فاستقطب تصفيقهم عندما استنهض همّته وأتى بما عهده الجمهور فيه سابقًا من قدرات مميّزة.

ولكنّي إذا ما أخطأت في موقفي بشأن الغريب الذي يقف على بابي يقرعه، فقد لا تسنح لي تلك الفرصة ثانيةً، فالغريب يكون قد مرّ بداري ومضى، لأنّ بابي بقي موصدًا في وجهه، وأكون أنا قد خسرت بذلك رفيقًا حكيمًا ومحبًّا على درب حياتي، وحكمت على نفسي في السير وحيدًا حتّى النهاية. ومصير الإنسان سرّ من أسرار الله وله أهمّيّته القصوى التي لا بدّ لكلّ منّا أن يقرّ بها، سواء بقي ذلك الإقرار سرًّا بين الإنسان ونفسه أم إنّه تخطّى الذات ليصبح علنًا.

إنّنا نجلّ كبار المفكّرين كسقراط وأفلاطون وأرسطو وسواهم ممَّن حاول التعمّق في معنى وجود الإنسان ومصيره. ولكن لا بدّ لنا وأن ننحني إجلالًا أمام دماء أولئك الذين، على مرّ العصور، كان الموت القصريّ مصيرهم، فضحّوا بحياتهم عن رضى في سبيل قضيّة مقدّسة اعتنقوها، أو أنّهم وقعوا فريسة الحقد والظلم وعدم احترام حقوق الإنسان الأساسيّة. فالإنسان لا يضحّي بحياته مجّانًا ولا الأبطال يولدون على أسِرَّة من حرير، إنّهم من رحم الحديد والنار ينبثقون، أو إنّهم على الصلبان يولدون. وما من



إنسان أصبح كبيرًا من دون أن تعبق نفسه بإيمان عميق في المصير والآخرة، أحقيقةً كان ذلك الإيمان في ظنّنا أم خرافة.

وعلى كلّ حال يبقى ذاك الغريب على بابي يقرعه ويهمس في نفسي السؤال الكبير عن الآخرة والمصير. قد أقف وأصغي وقد أتابع مسيرتي من دون أن أبالي. فالذي همّه في البورصة يتابع الغرق في همّها، والفنّان في باريس ينطلق نحو عمق جديد في حبّه والقلق، وفلّاح الصعيد يتابع السير وراء محراثه من دون أن يلتفت إلى الوراء، والسيّدة في هدوء قريتها تسكر في جمال ما تبدعه أناملها، والطيّار فوق المحيط يخترق السماء كما النسر في عنفوانه. ومَن أقفل المرضُ الحياةَ في وجهه يروح يغرق في بؤسه، في حين دفق الحياة يملأ قلب شابّ آخر ينهل من العلم آخر مبتكراته وكأنّ في العلم البداية والنهاية...

ويبقى المصير رهنًا بموقفي من سؤال ذاك الغريب الذي يقرع باب كلٍّ من هؤلاء:

مَن أنا في نظرك؟

هذا السؤال طرحه يسوع يومًا على أولئك الذين عايشوه في أثناء زمن رسالته، وعلى رسله

الذين انتقاهم ليحملوا مشعل الرسالة من بعده. حدث ذلك في مساء يوم كان فيه ذاك الغريب يتحلّق مع تلاميذه حول موقد في قيصريّة فيليبّس، ونور السراج الخافت، واللهيب المتصاعد من الموقد يحاولان اختراق الظلام...

إنّهم جماعة فاحت نفوسهم بطيب البساطة والصدق، في حين لقت أجسادهم خشونة عبقت منها رائحة سمك قويّة. وعلى وجوههم القاسية تقاطع نور السراج والموقد مع بعض الظلال، ممّا زاد المشهد رهبةً فوق رهبة.

هنالك، لألفي سنة خلت، وقبل عصر النقل السريع والاتّصالات اللاسلكيّة والتلفزيون والڤيديو والإنترنت، كان مولد هذا السؤال!

«ولمّا وصل يسوع إلى نواحي قيصريّة فيليبّس، سأل تلاميذه: «مَن ابن الإنسان في قول الناس؟». فبدا على وجوه أولئك الرجال المتحلّقين حول الموقد بعض من الشكّ. ثمّ حدث تبادل في الأنظار فيما بينهم وكأنّ الكلّ يترقّب مَن سيجيب.

«أخيرًا انبرى أحد تلك الوجوه البربريّة



قائلًا: «بعضهم يقول: هو يوحنّا المعمدان، وبعضهم الآخر يقول: هو إيليّا، وغيرهم يقول: هو إرميا أو أحد الأنبياء».

«حدث صمت آنذاك وبدا هؤلاء الصيّادون وكأنّهم في موقف المترقّب. فراح أحدهم يحدّق في كفّيه وفي ما خلّفت عليها آثار الشباك من تجعّدات، وآخر ينظر إلى النار وكأنّ وهجها أيقظ في نفسه دفئًا جديدًا... ثمّ أتى السؤال البديهيّ: «ومَن أنا في قولكم أنتم؟». فنظر إليه الصيّاد الذي كان يحدّق في يديه، كمَن كان يترقّب السؤال، فهو ربّما طرحه مرارًا على نفسه إلى أن تكوّنت لديه الإجابة واضحة، فأدلى بها بكلّ بساطة وعفويّة: «أنت المسيح ابن الله الحيّ». أتى صوته واثقًا والجواب واضحًا، فكأنّ الحقيقة ملكٌ لتلك اليدَيْن الخشبيّتَيْن».

ومن بعيد لاحت مياه البحيرة تلاطف رمال شواطئها، وبقي السؤال البديهيّ يطرح نفسه: «مَن لقّنك أيّها الصيّاد البسيط ما فهتَ به، ومَن تراه همس مثل هذا الجواب في عمق نفسك؟»

وها هو المسيح ما انفكّ، عبر الأجيال، يطرح على كلّ من أبناء البشر السؤال عينه. ولكن

يبدو أنّ الجميع لم يحظَ بما أوتيه بطرس من أنوار، لأنّه قرّر ألّا يؤمن بكلام يسوع وأفعاله.

بيد أنّ السؤال لم يصمت مع انطفاء تلك النار في قيصريّة فيليبّس، بل إنّه ما زال يطرح نفسه بقوّة على كلّ إنسان يعيش في قهر أو يحمل صليب الألم، في أيّة بقعة من الدنيا وُجِد. فإرادة المسيح ألّا يهلك أحد من إخوته، صغارًا وكبارًا، وهو ما انفكّ يطرح على كلّ منهم السؤال نفسه الذي طرحه على تلاميذه في قيصريّة فيليبّس: «مَن أنا في قولكم أنتم؟».

عندما تفوّه بطرس بجوابه الشهير معترفًا بأنّ المسيح هو ابن الله، كان المسيح يدرك أنّ الأمور لن تكون دومًا في مثل هذا الوضوح في نفس بطرس، بل إنّه، بالرغم من حماسه وشجاعته، ومع حبّه الصادق معلّمه، سيأتي يوم يقضّ فيه الفشل مضجعه ويذهب به ذاك الفشل إلى حدّ نكران المسيح تكرارًا في أحلك ظروف حياته.

وتبقى المأساة الكبرى أن المسيح «جاء إلى بيته فما قَبِله أهل بيته». أتى ليحمل الخلاص إلى الجميع فيرفع الناس إلى مصافّ أبناء الله وبناته: «أمّا الذين قبلوه وهم الذين يؤمنون باسمه فقد



مكّنهم من أن يصيروا أبناء الله».

«فيه كانت الحياة
والحياة نور الناس...
والنور يشرق في الظلمات
ولم تدركه الظلمات»...

«كان في العالم
وبه كان العالم
والعالم لم يعرفه...»

فيا أيّها المحارب أينما كنت، إرفع طرْفَكَ وحدّق من منظار سلاحك الذي صوّبته إلى أخيك الذي تدعوه عدوًّا! توقّف وأنصت، فعلى بابك يقف غريب ويقرع... وهو يسائلك عمّا أنت فاعل بأخيك، وعن آخرتك والمصير الذي تنتقيه لنفسك...

وأنت أيّها القارئ توقّف وانظر فعلى بابك شخص غريب، ولكنّ فيه الحياة وفيه النور. فيه الحياة التي بإمكانها أن تكون نورًا للعالم... إنّه الطريق والحقّ والحياة... توقّف وأنصت، إنّه يدعوك باسمك ويعيد الكرّة طارحًا سؤاله عليك مرّة جديدة: «مَن أنا في نظرك؟».

وأنتَ أيّها القارئ توقّف وانظر، فعلى بابك يقف شخصٌ غريبٌ، ولكنّ فيه الحياة والنور.



الفصل الثاني

# الجواب عن السؤال الكبير

لكي تأتي إجابتك عن السؤال واضحة ومقنعة، لا يمكنك الاكتفاء بما يمليه على قلبك الحدس. فقبل أن نضع ثقتنا بأيّ شخص، علينا أن نبحث في مؤهّلاته، ونكون على بيّنة ممّا يصبو إليه، فيأتي موقفنا منه عقلانيًّا وواعيًا.

لذا يفرض علينا العقل أن نتساءل عمّا يهدف إليه المسيح وعن مضمون رسالته، وهل توقّع الناس في زمنه مثل تلك الرسالة، وما كان مدى انفتاحهم عليها وتقبّلهم إيّاها؟

للإجابة عن هذه التساؤلات علينا أن نعود إلى ما يقوله لنا **الكتاب المقدّس** عن بداية الخليقة، وعن آدم ومعصيته الكبرى.

عندما خلق الله الإنسان وجد أنّه حسنٌ

وحسنٌ جدًّا. فخليقته كانت بعضًا من إشعاع له في الوجود، صورةً عنه ومثالًا له. وكان لتلك الصورة أن تمضي فترة من الزمن على شيء من المسافة من باريها لتعود بعدها وتنعم معه في سعادة لا نهاية لها.

بيد أنّ معصية آدم بدّلت في تصميم الله. قطع الإنسان في آدم علاقته بالله خالقه فأقفل باب السماء في وجهه.

ولكنّ رحمة لله ما برحت تقرع بابه وذلك بطرق شتّى: بأنبياء ومرسلين وبأحداث رافق الله فيها شعبه، عمود نار في الليل وغمامة بيضاء في النهار... إلى أن أتى يسوع المسيح وفيه تمّ اتّحاد الإله بالإنسان مجدَّدًا، «فأشرق مجد الله عليه»، لينفي عنه الخوف فيتقبّل البشارة «بفرح عظيم يكون فرح الشعب كلّه...». وهكذا عاد الإنسان ليصبح من «أهل بيت الله». والبشر جميعًا «الذين كانوا بالأمس أباعد، جعلوا أقارب بدم المسيح» (أنظر أفسس ٢/ ١٣).

وها هو يقف على بابي مجدَّدًا يقرعه! يريد أن يأتي إليّ أنا خاصّته، فهلّا قبلتُه وفتحتُ له بابي؟ لماذا تراه يأتي إليّ وينتظرني بصبر



واهتمام، وماذا عساه يقول لي؟

ما يقوله لي يبدو بسيطًا، ولكنّ أبعاده يصعب جدًّا تقديرها: «لقد أتيتَ لتكون لك الحياة وتكون لك أوفر». كي نفهم معنى مجيء المسيح وعمق أثر رسالته، علينا بالعودة مقلّبين صفحات التاريخ إلى أن نقف وجهًا لوجه مع الخالق في رهبة سكون البدء، وقتَ كان الكون «خاليًا خاويًا...».

من هناك بدأت مسيرة الله مع الإنسان... أمّا نحن فنبدأ من حيث نحن. فالصفحات الأخيرة هذه لم يجفّ حبرها بعد... وتكرّ أسماء الأشخاص والأمكنة وتجري الأحداث تربطها حقيقة واحدة، حقيقة الخلق والنموّ التي تتحقّق من خلال حضور «عمود النار في الليل والغمامة في النهار...». ذلك الحضور الذي يحيي... إلى أن يلتقي آدم الثاني بآدم الأوّل، فيتّضح كلّ شيء. آدم الأوّل أبو الشعوب كلّها، أبو العمل والتعب، أبو الألم والموت، أبو العطش والجوع، ومصدر كلّ بؤس تراه في مستشفيات الأمراض الجسديّة كما في مستشفيات المتاعب النفسيّة، وتشهده في صفوف المقاتلين

الذين يملأ الحقد قلوبهم، فيزرعون الموت والدمار وكأنّ ذلك أفضل نهج في الحياة...

آدم الثاني الذي «هو البداية والنهاية» والذي «حمل عاهاتنا وأمراضنا وبه كانت لنا الحياة...»، «فكما أنّ الخطيئة دخلت العالم على يد إنسان واحد، وبالخطيئة الموت... فبالأولى أن تفيض على جماعة الناس نعمة الله والعطاء الممنوح بنعمة إنسان واحد، ألا وهو يسوع المسيح... وكما أدّت الخطيئة للموت، فكذلك تسود النعمة بالبرّ في سبيل الحياة الأبديّة بيسوع المسيح ربّنا» (أنظر روما ٥).

وفي صمت الاكتفاء نقلب الصفحة الأخيرة من التاريخ ويُقفل الكتاب مجدَّدًا.

وها أنا أجد نفسي واقفًا لوحدي ثانيةً «ولكنّي لست بوحدي»، لأنّني أقف مع الله الذي أظهر لي حبّه الخلّاق من خلال تاريخ حضوره المتجسّد. أقف معه في البدء، إذ فاضت منه الحكمة وطفا على الوجود حبّه المقرون بقدرة لا متناهية: «في البدء خلق الله السماء والأرض... ويرى النور... والمياه واليبس... ثمّ قال: لنصنع الإنسان ذكرًا وأنثى... على صورتنا



وكمثالنا.. ونظر الله إلى كلّ شيء فرأى أنّ كلّ شيء حسنٌ وحسنٌ جدًّا...».

أقف لوحدي ولكنّي لستُ بوحدي، أقف وصورة الله فيّ، الله الذي خلقني لأغدق الحبّ وأعرف كيف أتقبّل الحبّ. أشارك الله ذاته في حياته، يشدّني دومًا توق إليه وإلى كلّ مخلوق لأنّه أبدع على صورته ومثاله: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان لدى الله والكلمة هو الله...» (يو ١/١).

إنّه لجميل أن تقف متأمّلًا في ذلك «الكلمة» وأن تعود إليه وتجثو بصمت على قدميه. في البدء خلق الله... وفي البدء كان الكلمة، والسيّد هو هو في البدء والآن وإلى الأبد.

«لقد ولد لنا ولد، أعطينا ابن، كانت الرئاسة على كتفه: دُعي اسمه عجيبًا مشيرًا جبّارًا أبا الأبد رئيس السلام... عليه يحلّ روح الربّ روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوّة... يحكم لبائسي الأرض بالاستقامة... ويكون البرّ حزام حقوَيه والأمانة حزام خصره، فيسكن الذئب مع الحمل ويربض النمر مع الجدي وصبيّ صغير يقودهما... ويلعب الرضيع على جُحْر

الأفعى... لأنّ الأرض تمتلئ من معرفة الربّ كما تغمر المياه البحر».

فكما نظرنا إلى الخلق بدهشة كبيرة ننظر كذلك إلى مجيء المخلّص وإلى النداء «والفرح العظيم» بكلّ ثقة ورجاء: «ها إنّ العذراء تحبل وتلد ابنًا يُدعى عمّانوئيل». هذا ما بشّر به الملاك تلك العذراء قائلًا لها: «لا تخافي يا مريم... فستحملين وتلدين ابنًا تسمّيه يسوع. سيكون عظيمًا وابن الله يُدعى...». فقالت مريم للملاك: «أنا أمة الربّ، فليكن لي بحسب قولك...». «إنّ مَن كان في المسيح فهو خلق جديد... ولم يرَ روح العبوديّة والخوف، بل نال روح التبنّي به وينادي الله: يا أبتِ» (أنظر روما ٨/ ١٥).

هكذا تحقّقت النبوءات في لحظة ما شهد التاريخ لبهائها مثيلًا: إنّها لحظة تجسّد ابن الله الكلمة الأزليّة، لحظة اتّحاد الألوهة بالبشريّة. وفي ذلك شعور بالدفء كذاك الذي يخالج الطفل العائد إلى بيت أبيه... إنّه انبعاث الرجاء والفرح الحقيقيّ في أبهى حلله. وها هو يعود بعد ألفَي عام ليقف على بابك يقرعه.



فيا أيّتها الأمّ والبتول الفتيّة، حين وقع نظركِ على هاتَيْن اليدَيْن النحيلتَيْن هل رأيتهما ممدودتَيْن إلى ما لا نهاية ومبسوطتَيْن لتحتضنا الكون بأسره؟ وعندما خشنت هاتان اليدان وهما تشقّان الأخشاب وتشذّان بها وتُغرس فيهما المسامير لتحوّلهما إلى أدوات لخدمة الإنسان، هل رأيتِ في ذلك قدسيّة العمل، كلّ عمل، وعظمة الشراكة بين الله والإنسان في متابعة الخلق، ليزداد العالم جمالًا وينعم المرء بثمار يدي أخيه الإنسان؟ وهلّا رأيتهما ترتفعان لتلامسا عيني الأعمى فتعيدا إليه البصر، وابن الأرملة في نعشه فتنبعث فيه الحياة مجدّدًا، والخبزات تكسّرها لتطعم آلاف الناس؟ وهلّا رأيتهما تحملان الخبز الذي أعطى العالم فيه جسده ليؤكل، والكأس التي حوّل الخمر فيها إلى دمه ليُشرب، عهدًا جديدًا أبديًّا، يقطعه مع الإنسان، وذبيحةً يتمّمها على الصليب بعد ساعات؟ وهلّا مرّ ببالك أنّهما ستمتدّان على الصليب يومًا لتغمرا الكون بأسره، وتجذبا إليهما كلّ شيء في كلّ مكان، وكلّ إنسان في أبعد مكان عن أورشليم، حتّى آخر ذرّة في الخليقة تئنّ شوقًا للعودة إلى خالقها؟

وعندما لفَّتْ يداك هاتَيْن الرجلَيْن الصغيرتَيْن الضعيفتَيْن، أترى مرّ ببالك كيف أنّهما ستقطعان المسافات الشاسعة على دروب أرض فلسطين الترابيّة؟ وهل أدركتِ أنّهما سوف تطآن أرصفة شيغاغو ولندن وباريس وروما، بل كلّ بقعة في مدن الأرض كما في أدغالها؟ وهل رأيتهما على متن كلّ باخرة وفي كلّ طائرة؟ وأخيرًا، هل شاهدتهما تقفان على باب قلب كلّ إنسان؟ هذا ابنك أيّتها الأمّ البتول الفتيّة يقف على باب كلّ إنسان يقرعه ليشفي مَن في الداخل ويبشّر ويحرّر. هل كنتِ تدركين أنّه من أجل ذلك كلّه حملته ووهبته لهذه الدنيا؟

وأنتِ أيّتها السيّدة المنهمكة بتنظيف بيتك، يوم السبت، ها هوذا غريب يقف على بابك يقرعه، ولكنّه ليس بالغريب حقًّا، لأنّه سبق وبُشّر به منذ آلاف السنين، وهُيِّئ مجيئه كما لم يُهيّأ في التاريخ ظهور قائد أو بزوغ نجم إنسان عظيم. إنّها حياةٌ كتبت قبل أن تعاش، كتبها أنبياء ولكن بوحي من لدن الله: داود وأشعيا وإرميا ودانيال وميخا وزكريّا وملاخي... فلولا هؤلاء لما تسلّطت الأضواء على بيت لحم، تلك القرية



الصغيرة في اليهوديّة، ولا صدّق أحد أنّ عذراء تحبل وتلد. ولو لم يُهيَّأ له ذاك «الصوت الصارخ في البرّيّة» لما تعرّف إليه أحد وهو يدخل أورشليم. ولولا كلام الأنبياء لما أدرك مَن رآه وهو يطرد الباعة من الهيكل، مدى غيرته على بيت الله، ولا مرّ بمخيّلة مخلوق رؤية شبح صليب إبّان آلاف السنين، قبل أن يرتفع على تلّة من تلال أورشليم وعليه سُمّر ملك المجد.

وإن شئتَ أن تتعرّف على حقيقة ما أقول، فما عليك إلّا أن تنزل الكتاب المقدّس من على رفّ مكتبتك وتغوص في صفحاته قارئًا بكلّ تأنٍّ أشعيا وإرميا ودانيال وآخرين. إنّها صفحات يفوح العتق من كلماتها، بيد أنّها تعبق بمعان تخاطب قلبك الآن وحيث أنتَ. فاقرأ وفكّر وتأمّل... إذهب إلى الباب: إذهب إلى «انتظار الشعوب»، «وحمل الله الوديع»، والنجم الذي سطع من ناصرة الجليل. نعم هذا هو الذي يقف على بابك يقرعه!

هذا الذي قال عنه أشعيا:

«هذا هو عبدي الذي أعضده

مختاري الذي رضيتْ عنه نفسي

قد جعلتُ روحي عليه
فهو يبدي الحقّ للأمم،
هو لا يصيح ولا يرفع صوته...
يبدي الحقّ بالأمانة.
لا يني ولا ينثني
إلى أن يحلّ الحقّ في الأرض
فلشريعته تنتظر الجزر...

هكذا قال الله الربّ:
أنا الربّ دعوتك في البرّ
وأخذت بيدك وجبلتك
وجعلتُك عهدًا للشعب ونورًا للأمم
لكي تفتح العيون العمياء
وتخرج الأسير من السجن
والجالسين في الظلمة من بيت الحبس...»
(أنظر أشعيا ٤٢/١-٧)

هذا الذي دعاه الربّ، هو نفسه الذي يقف على بابك يقرعه. فهلّا كرّستَ له بعضًا من وقت قد تصرفه في أحاديث لا طائل تحتها؟ أو تمضيه أمام شاشة التلفزيون في مشاهدة برامج أقلّ ما يقال في بعضها إنّها مضيعة للوقت، إن لم يكن مردودها النفسيّ والأدبيّ سلبيًّا، أو في أمور



أخرى تتحكّم في وقتك وفي أعصابك فتشغلك عن ذاك الذي يقف على بابك يقرعه؟

«مرتا مرتا، إنّك في همّ وارتباك بأمور كثيرة، مع أنّ الحاجة إلى أمر واحد، فقد اختارت مريم النصيب الأفضل، ولن يُنزع منها».

ذلك أنّه في قلب كلّ إنسان ما يدفع به إلى البحث عن أجوبة حقيقيّة لأسئلة كبرى تطرحها عليه الحياة. إنّها أسئلة تبحث عن معنى للحياة في مشاغل كلّ يوم. ومثل هذا العطش لن يشبعه على حدّ قول القدّيس أوغسطينس سوى ذاك الاستقرار في قلب الله. فيسوع المسيح هو الألف والياء وفيه الخلاص، وهو الطريق والحقّ والحياة... وهو هو الذي يقف اليوم على بابك يقرعه...

فالعديد العديد من المفكّرين «ساروا إلى العمق»، لأنّهم أدركوا أنّه في ذلك العمق فقط يمكنك أن تملأ شباكك من الحقيقة التي يمكنها هي وحدها أن تشبع عطش قلبك.

وهنالك أيضًا مَن تصعد شباكهم مثقلة بالحجارة والرمال تظلّلها الخيبة ويملأها فراغ

قاتل، أولئك الذين «آلهتهم بطونهم...»، وقد جعلوا من أنفسهم أشباه آلهة، وكأنّ الكون بأسره يدور على ما هم في حاجة إليه من مأكل أو مشرب أو ملبس... ففاتهم أن ينظروا إلى زهور الحقل وطيور السماء كيف أنّها لا تحصد ولا تزرع... وكيف أنّ الله يشبع جوعها، ويروي عطشها، ويلبسها من الحلل ما لم ينعم به سليمان في كلّ مجده...

نحن نبحث عن معنى لحياتنا وللوجود من حولنا، وقد لا ندرك ما هو، ولا أين يمكننا أن نجده. وقد يدفع بنا الجوع والعطش إلى البحث في أربع زوايا الكون... ونحن لا ندرك أنّ ما نبحث عنه إنّما هو واقف على باب بيتنا يقرعه!

فبهجة اكتشاف الجواب هي منّي على قاب قوسين أو أدنى، وهي في انتظار قبول حرّ لدعوة تُوجّه إليّ وتنتظر، علّني أقف وأصغي لأعيش تلك الخبرة الفريدة التي كانت لذاك الذي وجد كنزًا في حقل، فأسرع وباع كلّ ما له واشترى ذلك الحقل. ولأختبر الفرح الذي حمل يومًا أندراوس أحد الاثني عشر على الجري مسرعًا في إحدى طرقات بيت عنيا ليقول لأخيه بطرس إنّه «وجد المسيح»



وإنّه قريب، بل هو على بابه... «فجاء ببطرس إلى يسوع»، فحدّق إليه يسوع وقال: «أنت سمعان بن يونان وستدعى كيفا أي صخرًا». وهكذا وجد كلّ من أندراوس وبطرس جوابًا ملأ حياتهما، فتبدّل فيهما منذ ذاك الحين كلّ شيء. وأهمّ ما في الأمر أنّهما «تركا كلّ شيء وتبعاه».

وها إنّ الرجاء نفسه يقف في متناولك، والدعوة هي هي توجّه إليك وإليّ. فالمسيح ينتظر وهو «الحظّ الذي لن يُنزع منك أبدًا»، إذا عرفتَ كيف «تجلس إلى قدمَي الربّ تسمع كلامه» كما فعلتْ من قبلك فتاة من بيت عنيا اسمها مريم فنالت حظًّا «لا ولن يُنزع منها».

وهنالك قصّة أخرى وصلت إلينا في إنجيل القدّيس يوحنّا وهي قصّة ليسوع مع سيّدة سامريّة لقيها على مقربة من بئر أتت تستقي منها ماء. كانت على شيء من البطء في فهمها ولكنّ يسوع، ببساطة المعلّم الحاذق وطول باله، عرف كيف يكشف لها ذاته على أنّه المسيح المنتَظَر.

فذات يوم، والطقس صيف والحرّ في أوجه، مرّ يسوع مع تلاميذه في إحدى مدن السامريّة في فلسطين، وهي مدينة «يقال لها

سيخارة»، على مقربة من مدينة نابلس. فما وراءه من سفر حتّى اليهوديّة، سيرًا على الأقدام، كان طويلًا ومضنيًا. وما ينتظره من هضاب وأودية يقطعها ليبلغ منطقة الجليل، ما كان أقلّ مشقّة على تلك الأقدام التي كثرت فيها الحروقات وفعلت فعلها فيها المسافات...

فقصدوا في تلك المدينة محطّة قديمة يعرفها كلّ مسافر، ألا وهي «بئر يعقوب». وكانت تلك البئر عميقةً وماؤها منعشة. ويقول أبناء تلك المدينة إنّهم مدينون بها ليعقوب أحد البطاركة القدامى الذي وهبها لابنه يوسف، وإلى كلّ عطشان يمرّ بها، «وقد شرب منها هو وبنوه وماشيته».

وكانت تلك المحطّة قد أصبحت ساحة للمدينة قبل أن يكون في المدن ساحات. وكم من الناس تلاقوا هناك للمرّة الأولى وتعارفوا. فهؤلاء لم يكن لديهم المتاجر الكبرى ولا بنايات المكاتب ولا النوادي الاجتماعيّة حيث يلتقي الناس في عصرنا.

هنا إذًا، إلى جانب تلك الحجارة الرماديّة اللون بعتقها، والمعمّرة بشكل مخروط، وقد

«مرتا مرتا، إنّك في همّ وارتباك بأمور كثيرة، مع أنّ الحاجة إلى أمر واحد، فقد اختارت مريم النصيب الأفضل ولن يُنزع منها».

برتها لمسات الأيدي على مدى مئات السنين، جلس يسوع ليستريح قليلًا. أمّا التلاميذ فذهبوا إلى المدينة ليبتاعوا لهم بعض الطعام.

وكان يسوع يجلس في الشمس وحيدًا في انتظار ذاك الضيف الذي كانت العناية الإلهيّة خطّطت لاستقباله منذ الأزل. وإذا بها تطلّ بثوبها المتدلّي يلامس التراب بشيء من الرشاقة، وعلى رأسها جرّة وفي خطاها ثقة المُعْجب بنفسه... وها هما غريبان يلتقيان، كما التقى من قبلهما غرباء كثيرون حول تلك البئر الشهيرة. بدت تلك السيّدة وكأنّها وُلدت خارج عصرها! فلو أنّها من سكّان إحدى مدننا اليوم لغدت شهرتها واسعة جدًّا، ولكان لدى البوليس الكثير من المعلومات عنها.

وبينما هي تقترب، ألقت من طرف عينها، نظرة على ذاك الشابّ الجالس وحيدًا تحت أشعّة الشمس الحارقة، وما لبثت أن أدركت بلا شكّ أنّه يهوديّ، فحال ذلك دون انسياقها إلى التحدّث إليه كما أملت عليها روح العفويّة عندها. نعم، إنّه يهوديّ، وما من يهوديّ، ولو كان ضالًّا في قلب الصحراء، يستدلّ من سامريّ طريقه، فكيف به يبادره السلام!



وهي أيضًا سامريّة وفخورة بذلك، وفي نفسها استعلاء أشبه بما في نفس اليهوديّ من احتقار للسامريّين. وما إن شرعت ترفع الماء بدلوها حتّى فاجأها ذاك الشابّ قائلًا: «إسقيني». فأدارت طرفها نحوه وحدّقت إلى عينيه مجدَّدًا علّها أخطأت الظنّ للوهلة الأولى بأنّه يهوديّ، ولكنّها سرعان ما وجدت أنّها كانت مصيبة في نظرتها. وبعد برهة من الصمت وبعض تردّد قالت له: «كيف تسألني أن أسقيك وأنتَ يهوديّ وأنا امرأة سامريّة؟».

ففاجأها ذاك الشابّ بجواب تخطّى سؤالها الواضح القاسي فقال: «لو كنتِ تعرفين عطاء الله ومَن هو الذي يقول لك: إسقيني، لسألتِه أنتِ ماءً فأعطاك ماءً حيًّا». أتراه كان يتوقّع أن تدرك أنّه «هو الحياة»؟ أم تراه شاء أن يحملها على التساؤل فالارتفاع إلى ما هو أسمى؟ ولكن سرعان ما أتى الجواب بسيطًا وعمليًّا لا مساءلة فيه ولا إدراك يفوق المعتاد، فقالت: «يا سيّد، لا دلو عندك، والبئر عميقة، فمن أين لك الماء الحيّ؟».

فما كان بوسعها أن ترى أبعد من الماء الذي كانت تصبّه في جرّتها، فتابعت مسائلة إيّاه

بدهشة ممزوجة بشيء من السخرية: «هل أنتَ أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا البئر، وشرب منها هو وبنوه وماشيته؟».

فأتى جوابه واضحًا، ولكنّه غريب: «كلّ مَن سيشرب من هذا الماء يعطش ثانيةً، وأمّا الذي يشرب من الماء الذي أعطيه أنا إيّاه لا يعطش أبدًا، بل الماء الذي أعطيه إيّاه يصير فيه عين ماء يتفجّر حياة أبديّة». إنّه يقدّم إليها حياة الروح، التي هي هبة لا وصف لها، إذ إنّها شراكة في حياة الله. إنّه الماء الوحيد الذي يروي عطش النفس البشريّة حقًّا.

ولكن ما من عجب أنّها ما أدركت ذلك، إذ إنّ الماء الوحيد الذي تعرفه هو ذاك الذي تستقيه من بئر يعقوب، وفي ظنّها أنّه سيعطيها منه ما يكفي، كي لا تعود تتكبّد مشقّات المجيء إلى تلك البئر في حرّ النهار، فقالت له: «يا سيّد، أعطني هذا الماء، لكي لا أعطش فأعود إلى الاستقاء من هنا».

لو كان الأمر مع أحدنا لكنّا، في غالب الظنّ، أوقفنا الحوار وعدنا إلى الحديث عن الطقس أو ما شابه، ولكنّا حزنّا على ما أضعنا من

نحن نبحث عن معنى لحياتنا وللوجود من حولنا، ولكن من دون أن ندرك أنَّ من نبحث عنه إنّما هو واقفٌ على باب بيتنا يقرعه.

الوقت في محاولتنا. ولكن يبدو أنّه لا أنتَ ولا أنا نحسن الوقوف والانتظار أمام باب نقرعه، ونروح نقرعه بصبر ومثابرة لطيفة ومحبّة إلى أن ينفتح...

كان مُصرًّا على أن يظهر لها تلك القدرة التي بإمكانها أن تفجّر آبارًا حتّى في صحراء السامرة.

«إذهبي فادعي زوجك، وارجعي إلى ههنا». أجابت المرأة: «ليس لي زوج»، فقال لها: «أصبتِ إذ قلت: ليس لي زوج. فقد كان لك خمسة أزواج، والذي عندك الآن ليس بزوجك، لقد صدقتِ في ذلك».

يا للصدمة! فوقفتْ لحظة وهي في حيرة من أمرها، ولكنّ صدقها مع ذاتها وثقتها بنفسها حالتا دون انهزامها، فإذا بها تغيّر الحديث! بيد أنّ نورًا بدأ يضيء طريقها، فقالت: «يا سيّد، أرى أنّك نبيّ. تعبّد آباؤنا في هذا الجبل، وأنتم تقولون إنّ المكان الذي فيه يجب التعبّد هو في أورشليم». فراح يشرح لها كيف أنّ في العبادة ما يتخطّى الظواهر، وما هو أبعد من الزمان والمكان: «إنّ الله روح، فعلى العباد أن يعبدوه



بالروح والحقّ».

إنّه يحاول أن يقول لها إنّ الحياة الحقيقيّة، كما العبادة، لا تنحصر في ما هو محسوس وفي متناول اليد والعين... ولكنّ هذه السامريّة البسيطة ومَن ماثلها لا قدرة لهم على الحديث سوى عن الماء الذي يروي الغليل، وثقله في الجرّة يرهق الرأس والكتف، وهو إذا ما غسلتَ به وجهك أشعرك بالانتعاش ولو إلى حين... هذا ما تسوقه إلينا الحواسّ. ولكن في عبادة الله المحبّ ما يتخطّى الحواسّ. هنالك القلب الذي وحده الله يدرك ما فيه. علينا أن نركع ونصلّي، وأن يصلّي جسدنا أيضًا، ولكن يجب أن تأتي حركاتنا، كما الصلاة، نتيجة لما يجول في القلب من مشاعر حبّ وتواضع.

يبدو أنّها ما فهمت شيئًا من كلّ ما قاله ذاك الشابّ لها، بل وكأنّ كلامه زادها ارتباكًا، فرأت أن تنهي الحديث وتؤجّل البحث كلّه إلى أن يأتي من لدن الله مَن يوضح الأمور لها، ولكلّ مَن يبحث عن أجوبة لأسئلته الكبرى، فقالت له: «إنّي أعلم أنّ «المشيح» لآت وهو الذي يقال له المسيح، وإذا أتى، أخبرنا بكلّ شيء». أمّا هو

فقرّر آنذاك أن يضع فجأة أمام عينيها تلك الحقيقة التي كانت تبحث عنها. ذلك أنّه شعر بلا شكّ بأنّ تلك السيّدة التي بدت وكأنّها هائمة على وجهها في هذه الدنيا، تمرّ من علاقة إلى أخرى وكأنّها تبحث عن سعادة تهرب منها، إنّما هي جادّة في بحثها عن الحقيقة وصادقة في توقها إلى مَن ينتشلها من ضياعها الكبير.

فقال لها: «إنّ هذا المخلّص الذي أنتِ في انتظاره هو هنا، بل هو أنا، أنا الذي يكلّمك». أتت تلك المفاجأة كعاصفة جرفت تلك السيّدة، فأسرعت إلى المدينة تذيع الخبر، وفي بهجتها خلّفت وراءها الجرّة والماء وكأنّ ماءً آخر قد أنعش كيانها بأسره، فراحت تذيع البشرى على أهل المدينة. فقالت للناس: «هلمّوا فانظروا رجلًا قال لي كلّ ما فعلت. أتراه المسيح؟». فخرجوا من المدينة وساروا إليه.

ها هي تلك السيّدة تتبدّل من شخص يعيش في ضياع هائل إلى رسول يذيع خبر المسيح ويقبل بالناس إليه. أترى من شبه بين تلك السيّدة السامريّة وبيني؟ أليس لكلّ منّا جرّته، جرّة ماء أو سوى ذلك، ونحن نهيم في الحياة وكأنّنا نبحث



عن أفضل ما نملأ به جرّتنا تلك؟

فالماء الذي يبحث عنه أحدنا قد يكون نقودًا، وآخر قد يبحث كيف يملأ جرّته من عصير العظمة والشهرة، وآخر يهيم باحثًا في كلّ مكان عن اللذّة في علاقات متعدّدة، سطحيّة وعابرة، فهو يريد أن يغرف في الحياة أكبر قدر ممكن من ذاك الماء، وكأنّه يشعر بأنّه في سباق مع الزمن.

وهنالك غريب أو غريبة في الانتظار على مفارق حياتنا، مرسلون من لدن الله لنشر الخبر بشكل أو بآخر، ولإحداث صدمة توقظ في كلّ منّا ذلك الكنز المدفون والذي نحمله في آنية من خزف. إنّه التوق إلى «الماء الحيّ»، إلى السلام الحقيقيّ، إلى المعنى الذي يبحث عنه كلّ منّا بطريقته الفريدة ونهجه الخاصّ.

ولكن قد يحدث أن تعمي آلام الدنيا وهمومها أبصارنا، فنروح نروي عطشنا بإقامة آلهة لنا، نصنعها من الغنى أو من اللذّة أو من غرائز أخرى يُخيَّل إلينا أنّها المنقذ من الآلام وخير مخلّص ممّا يثقل الحياة من هموم. وإذا بنا نشعر بأنّ ذلك الماء إنّما يتحوّل شيئًا فشيئًا إلى ما يشبه السمّ، فتتفاقم الآلام في الداخل، ونروح

ننغلق على ذواتنا ونزداد عطشًا وأنانيّة يومًا بعد يوم، متناسين أنّ ماء الحياة الحقيقيّ من شأنه أن يطلقنا نحو الآخر في عطاء يتجدّد كلّ يوم وينمو:

«إنّ الذي يشرب من الماء الذي أعطيه أنا إيّاه لن يعطش أبدًا، بل الماء الذي أعطيه إيّاه يصير فيه عينَ ماء يتفجّر حياةً أبديّة».

إنّه صوت الغريب الذي يقف على بابي يقرعه: على كلّ منّا أن يصلّي علّه يستفيق يومًا فيترك جرّته على بئر الحياة، ويسرع بفرح يذيع على الناس بشرى حياة أخرى حملها إليه المسيح، وقد فتح له الباب أخيرًا فدخل بيته «وتعشّى معه» فغدا وكأنّه وإيّاه من سكّان بيت واحد وأهل عائلة واحدة.

هذا ما يعطي قبول المسيح أو رفضه تلك الأهمّيّة القصوى في الحياة. نحن نعيش في عصر تحكمه وسائل الإعلام فتُحكّم فينا بدورها حضارة الاستهلاك. الكلّ يدفع بنا إلى شراء هذه السلعة أو تلك، واعتناق هذا المذهب أو ذاك، والكلّ يحاول أن يقنعنا بجودة سلعته أو حقيقة مذهبه.



فإلى جانب حضارة الاستهلاك تنمو فينا نزعة إلى الشكّ والتساؤل. إنّنا نريد أن نعرف، نريد أن نختبر الأمور بأنفسنا، نراها، نحسّ بها ونتذوّقها.

بيد أنّ هذه الظاهرة ليست جديدة، بل هي قديمة بقدم البشارة بموت المسيح وقيامته. فموقف توما غدا مضرب مثل لكل مَن يشكّ في أمر ما. فعندما قال له التلاميذ إنّهم رأوا الربّ أجابهم قائلًا: «إذا لم أبصر أثر المسامير في يديه، وأضع إصبعي في مكان المسامير، ويدي في جنبه، لن أؤمن».

إذًا نحن لسنا أوّل القائلين إنّنا نريد أن نرى، أن نلمس بأيدينا... قبل أن نصدّق. فالصراع في شأن قبول المسيح «ابن الله المتجسّد» أو رفضه إنّما هو صراع قديم جديد.

ويبقى السؤال مطروحًا على قلب كلّ مَن سمع البشارة بالمسيح وعلى ضميره: لماذا عليّ أن أقبل المسيح؟ ماذا تراه يقدّم إليّ وإلى البشريّة؟ هذه ليست قضيّة بسيطة ولا القرار فيها سهل. ولا هي مسألة يمكن للإنسان أن يبدّل رأيه فيها بسهولة. ذلك أنّها قضيّة تتخطّى أبعادها هذه

الدنيا إلى الحياة الأبديّة، وإلى مصير الإنسان في الآخرة. إنّها قضيّة فرح أبديّ «لم تره عينٌ ولا سمعت به أذنٌ ولا خطر على قلب بشر...».

أتى المسيح يتكلّم على الملكوت، ملكوت الله، ملكوت السماء، وكأنّه ملكوته هو. إنّه يؤكّد من دون تردّد ولا مساومة: «إنّ مَن يؤمن به يحيا ومَن لا يؤمن يُدان». أتى المسيح يقول إنّه المخلّص. وهذا ما أكّده للمرأة السامريّة. فعندما قالت له: «إنّ المسيح، إذا أتى، أخبرنا بكلّ شيء»، أجابها بكلّ وضوح: «أنا هو، أنا الذي يكلّمك».

وممّا قاله المسيح عن نفسه أيضًا إنّه «المعلّم»، وهذا لقب نُسب إليه نحو ثلاث وثلاثين مرّة في الأناجيل. الموضوع الأساسيّ في تعليمه يتناول «الملكوت»، ملكوت السماء، ملكوت الله. أمّا الهدف من تعليمه فهو خلاص الإنسان، كلّ إنسان. فكلّ مَن يؤمن به ويعتمد يخلص. وهذا التعليم ليس منه بل هو رسالة من الآب الذي أرسله.

لقد علّم وأرسل من بعده تلاميذه ليثابعوا نشر ذلك التعليم قائلًا لهم: «إذهبوا في العالم



كلّه، وأعلنوا البشارة إلى الخلق أجمعين، فمَن آمن واعتمد يخلص، ومَن لم يؤمن يُحكم عليه».

وعندما سأل تلاميذه عمّا يقوله عنه الناس، أجابه بطرس: «أنتَ المسيح ابن الله الحيّ»، قبل يسوع ذاك اللقب ومدح بطرس على أنّ ما تفوّه به لم يأته من إنسان، بل من الآب السماويّ نفسه. وقد أكّد المسيح مرارًا الوحدة الكاملة بينه وبين الآب إذ قال: «أنا والآب واحد»، «ومَن يكرم الابن يكرم الآب الذي أرسله». وقد أشار إلى الوحدة الكاملة الأبديّة بالآب أيضًا حين قال:

«إنّي قد مجّدتُك في الأرض، فأتممتُ العمل الذي وكلتَ إليّ أن أعمله، فمجّدني الآن عندك يا أبتِ لما كان لي من المجد عندك قبل أن يكون العالم...» (يو ١٧/ ٤-٥).

هذا ما يطرحه المسيح على قلب كلّ إنسان وعلى ضميره، وهذا ما يقوله لك ولي عندما نفتح له الباب الذي لن ينفكّ يقرعه بلا ملل.

فهلّا وقفنا بصدق أمام المسيح الذي يقرع بابنا ويطرح هذه الحقائق على عقولنا وقلوبنا، وسألنا أنفسنا مستلهمين الروح الذي يعضد

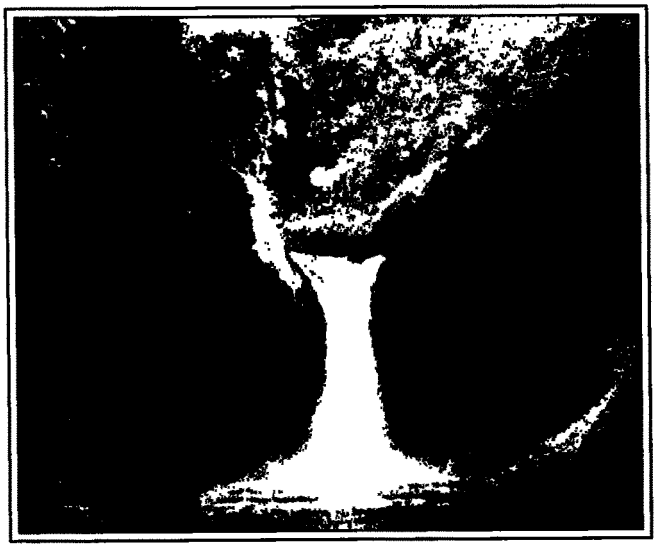

فالماء الذي يبحث عنه أحدنا قد يكون نقودًا، وآخر يبحث كيف يملأ جرّته من عصير العظمة أو الشهرة أو اللذّة. . . فما الذي أبحث عنه أنا؟



ضعفنا، علّنا نفهم ليس بعقولنا وحسب، لأنّ مثل هذه الحقائق تتخطّى حدود العقل، بل في نفوسنا وضمائرنا وقلوبنا، وبروح الثقة ونور الإيمان؟

الفصل الثالث

# العميان يبصرون والصمّ يسمعون

إنّ موضوع ألوهيّة المسيح وما قاله هو عن نفسه في هذا المضمار، يمكن أن نبدأ في التثبّت من حقيقته في عودة إلى ما أدلى به الأنبياء الذين بشّروا بمجيئه على مدى أجيال طويلة، قبل أن «يحلّ ملء الزمن» ويتجسّد ويولد في بيت لحم اليهوديّة.

فمن الواضح أنّ تلك النبوءات هي أكبر من أن يفوه بها إنسان من عنده، وفيها بُعد روحيّ حقيقيّ. فلا بدّ وأنّ مصدرها روح الله وهي أتت لتسبق كلام المسيح وأعماله، وتؤكّد أنّها من لدن الله صدرت. وفوق هذا التأكيد النبويّ فالمسيح نفسه كان يردّد أنّه ابن الله ومشابهٌ للآب، ويثبت تلك الأقوال بالعجائب. فالأعجوبة الحقيقيّة هي

علامة جليّة لتدخّل الله المباشر في أمور الناس. وعندما تأتي الأعجوبة استجابة لطلبه يصبح من المنطق أن تُحسب وكأنّها علامة رضى عنه من لدن الله. ومن المعروف أنّ الله لا يتدخّل لإحداث أمر ما فيه شرّ أو هو مبنيّ على خطأ. ومن المنطق أيضًا ألّا يضع الله قدرته الفائقة في متناول يد إنسان لا يصدق في كلامه. وحياة يسوع مليئة بالأحداث التي تظهر من خلالها تلك القوّة. فهكذا أوجز القدّيس مرقس أعماله في الجليل بقوله: «فانصرف يسوع إلى البحر ومعه تلاميذه، وتبعه حشد كبير من الجليل، وجمع كثير من اليهوديّة، ومن أورشليم وأدوم وعبر الأردنّ ونواحي صور وصيدا وقد سمعوا بما يصنع فجاؤوا إليه. فأمر تلاميذه بأن يجعلوا له زورقًا يلازمه، مخافة أن يضايقه الجمع، لأنّه شفى كثيرًا من الناس، حتّى أصبح كلّ مَن به علّة يتهافت عليه ليلمسه. وكانت الأرواح النجسة، إذا رأته، ترتمي على قدميه وتصيح: «أنتَ ابن الله!»، فكان ينهاها بشدّة عن كشف أمره» (مرقس ٣/ ٧-١١).

ولكن بين كلّ ما قام به المسيح ليبرهن



للناس أنّه ابن الله، تبقى الأعجوبة الأبرز قيامته من بين الأموات. فلأعاجيب المسيح وجهان: وجه يُظهر ما في قلبه من عطف على المريض والمتألّم، وآخر يشير إلى القدرة الفائقة على الإيمان بالله. وما من شكّ في أنّ الأعاجيب تشكّل قوّة برهان حقيقيّة.

يخبرنا القدّيس متّى في إنجيله عن رجل اسمه يوحنّا أتى ليمهّد الطريق للمسيح. طرحه هيرودس الملك في السجن لأنّه تجاسر وقال له إنّه لا يحلّ له أن يأخذ امرأة أخيه. ومن سجنه سمع يوحنّا يومًا أنّ إنسانًا يجوب المنطقة يجترح العجائب ويعلّم كمَن له سلطان، ويقول عن نفسه إنّه المسيح ابن الله. فشعر يوحنّا في عمق نفسه بشيء من البهجة التي دفعته كي يهمس في أذن أحد تلاميذه كان قد أتى لزيارته، طالبًا إليه أن يقصد ذاك الإنسان ليسأله عن حقيقة ما سمعه يوحنّا. كان يجول في بال يوحنّا السؤال نفسه الذي يجول ببالك وببالي الآن عن ذاك الإنسان. أتراه هو المسيح المخلّص أم لا؟

وفي حين كان يسوع يتنقّل في قرى الجليل يعلّم ويشفي، إذا بذاك التلميذ الذي أرسله يوحنّا

يستوقفه مع بعض من رفاقه ويقول له بكلّ صراحة: لقد أرسلنا يوحنّا لنسألك هل أنتَ الآتي أم ننتظر آخر؟ السؤال كبير وأساسيّ، وما كان من الممكن أن يأتي الجواب عنه بنعم أم لا. فذاك الشخص القابع في غرفة مظلمة من سجن هيرودس كان ينتظر أكثر من ذلك، تمامًا كما ننتظر أنتَ وأنا.

كان يوحنّا على علم واسع بنبوءات **العهد القديم**، وكان يدرك أهمّيّتها جيّدًا، كما أنّه كان يعرف أنّه إذا كان ذلك الشخص حقًّا ابن الله والمسيح المخلّص، لا بدّ وأن تحتوي إجابته على شيء من البرهان عن حقيقة كيانه، وهو لن يكتفي بإجابة بسيطة غير معلّلة.

هنالك مَن يقول بأنّ يوحنّا المعمدان كان يدرك تمامًا أنّ ذاك الشخص هو المسيح الذي سبق وعمّده في نهر الأردنّ. ولكنّ السؤال الكبير الذي طرحه عليه كان فيه بعض استدراج للإجابة عن سؤالك أنتَ وسؤالي عن هويّة ذاك المعلّم والشافي. ومنهم مَن قال أيضًا إنّه لو لم يدرك يوحنّا أنّ ذلك هو المسيح لما أمكنه تحمّل مشقّات ذاك السجن وآلامه.



وهكذا أتت إجابة يسوع عن هويّته ورسالته تمامًا كما توقّعها يوحنّا وكما يتمنّاها كلّ متسائل، فقال لهم: «إذهبوا وأخبروا يوحنّا بما رأيتم وسمعتم: العميان يُبصرون، والعرج يمشون، والصمّ يسمعون، والبرص يطهرون، والمساكين يُبشّرون... وطوبى لمَن لا يشكّ فيّ».

إنّ ما يكمن في هذه الإجابة من معان، وفي عجائب المسيح من قوّة ومن سلطة على الطبيعة وقوانينها، يشير إلى أنّ في هذا الشخص ما هو فوق البشر. وبما أنّه يقول عن نفسه إنّه الله فمن حقّنا أن ننتظر أن يقوم بما يوحي بأنّ له قدرة فائقة. والأعاجيب إنّما هي من صنع الله أو من صنع مَن يعمل باسم الله.

كلّ شيء في الطبيعة يعمل بحسب قواعد معروفة ومقبولة من كلّ مَن يتفحّصها بطريقة علميّة. ومن دون تلك القواعد فلا الأطبّاء يمكنهم معالجة مريض، وما من مهندس يستطيع أن يبني بيتًا أو يعبّد طريقًا، ولا يبقى لأستاذ ما يعلّمه لطلّابه.

نحن البشر نبدأ في التعرّف على تلك القواعد والقوانين منذ ولادتنا. فوراء الصرخة

الأولى التي يطلقها الطفل قاعدة، وعندما يقع الطفل أو تسقط من يده لعبته يتعلّم أمثولة جديدة. وعندما يكبر وتتكرّر تلك الأمور يدرك أنّ هذا النهج أصبح ثابتًا وغدا بمثابة قاعدة قانون يتّبع.

يرفع الطفل طرفه نحو النجوم ويسائل نفسه ما الذي يُبقي على كتلات النار تلك معلّقة حيث هي. ولم لا تقع الشمس ويهبط القمر على الأرض؟ وما ينتهي الطفل إلى قبوله وكأنّه أمر طبيعيّ إنّما هو في الواقع كناية عن مجموعة من القوانين أو القواعد الثابتة.

وليس من حاجة إلى محاكم للتأكّد من تطبيق تلك القوانين، فهي لا تُخطئ أبدًا ولا نحن نتساءل في شأنها إلّا عندما نرى فجأة ميتًا يستفيق أو أعمى يعود إليه نظره، أو مقعدًا ينهض لتوّه ويمشي، أو أصمّ يستعيد سمعه... إنّ فهم مثل هذه الخوارق للقوانين الطبيعيّة يستحيل علينا فهمها. ولكنّه ليس بالصعب أن نعرف مصدرها.

إنّ مخترع المحرّك الكهربائيّ وضع له قوانينه. وقوانين المجرّات في الفلك وضعها أيضًا خالقها... وهكذا يعود بنا المنطق بصمت



إلى الخالق ونجد أنفسنا على أقدام الله، الله الذي خلق السموات والأرض والكون بأسره، وهو يدرك ما في قلب الإنسان وعقله، وما يكمن في عمق نفسه...

وعندما نشهد بأمّ العين خرقًا واضحًا وحقيقيًّا لتلك القوانين، ندرك، بما لا يقبل الشكّ، أنّنا أمام قدرة تفوق الطبيعة لا بدّ وأن يكون مصدرها إمّا روح ملاك وإمّا روح شرّير، وإمّا الله تعالى ذاته.

بيد أنّه ما من روح ملاك، مهما علا شأنها، أو روح شرّ مهما اشتدّ عزمها، إلّا وتستمدّ هي أيضًا قوّتها من قدرة باريها. أمّا الملاك فهو دومًا في توق إلى أن يعمل عمل الله ويمجّد خالقه ومنبع قدرته. أمّا روح الشرّ فيبحث كيف يحقّق إرادته هو ويعمل ما يخدم أهداف أنانيّته. فبإمكانه أن يلج إنسانًا بثوب حمل، ولكن سرعان ما يظهر مكره فتتبدّد الوعود لتحلّ مكانها الخيبة في النفس ويعمّ الضياع.

وقد يقود ذلك الروح إنسانًا إلى علوّ جبل ويوهمه بأنّ العالم كلّه مطروح على قدميه إذا ما انساق هو إلى مشيئته... ولكن مهما بلغت قوّة

الشرّير أو عظمت قدرة احتياله، يبقى السؤال مطروحًا أمامنا عندما نرى الأصمّ يسمع، والأعمى يبصر، والمقعد ينتصب ويمشي: هل من المعقول أن يكون ذلك من صنع الشرّير؟ وهل هنالك من شكّ في أنّ روح الله وحده هو الذي يمكنه أن يشرق مثل هذا النور في حياة إنسان معذّب؟

يبدو الجواب عن هذا السؤال واضحًا: عندما يعود النور إلى عيون أعمى وتتسرّب أنغام الموسيقى العذبة مجدّدًا إلى آذان صمّاء، أو تعود الروح فجأة إلى جسم مائت، فذلك لأنّ أحدًا توسّل إلى الله من أجل أولئك المرضى. آنذاك تبدأ الأسرار تتبدّد وغامض الأمور يتّضح. فهل يُعقل ألّا يستجيب الله المحبّ دعاء محبّيه، وأن يسمح لروح الشرّ بأن يحتال إلى حدّ اجتراح أعمال الخير وهو لا خير فيه؟ إنّ في مثل ذلك من التناقض ما لا يمكن أن يُنسب إلى الله.

وممّا يساعد على استيضاح طبيعة الأعاجيب والمعجزات، النظر عن كثب في ما يحيط بها من وقائع وما يكتنف حدوثها من ظروف. فما يسبق الأعجوبة وما ينتج منها إنّما



هو دائمًا أمر حسن. في الأعجوبة خير في البداية وأثناءها كما في النهاية.

قيل سابقًا: إنّ ظروف الأحداث توضح دائمًا حقيقتها. وبخصوص ما نحن في صدده، فما من شكّ في أنّ روح القداسة تخيّم في الأجواء لأنّ البداية ليست سوى تضرّع صادق ومحبّ إلى الله القدير المحبّ. لذا فنحن على يقين من أنّ يد الله هي التي تجترح تلك الأعمال الخارقة الطبيعة التي نشهد.

ولكن إذا ما أحاطت بالأعمال ظروف غامضة وخيّمت عليها غيوم الغشّ والأنانيّة، فيد الله ليست فيها ولا يمكنها أن تكون من صنعه. فعمل الشرّ من الشرّير. لذلك عندما أراد اليهود أن ينسبوا الشرّ إلى المسيح قالوا إنّه ببعل زبول يجترح العجائب: آنذاك وجد المسيح نفسه مضطرًّا إلى أن يقول لهم بكثير من التحدّي: «مَن منكم يمكنه أن ينسب إليّ الشرّ، أو يشكوني بخطيئة؟».

ما من أحد عبر التاريخ اتّهم يسوع بالفساد. قد أنكره بعضهم، وبعضهم الآخر رأى أنّه على شيء من السذاجة، إذ إنّه كان ينادي بحبّ

الأعداء ويؤاكل العشّارين ويتقرّب من الخطأة... كان يدع بغيًّا تبلّل رجلَيْه بدموعها، وتمسحهما بشعر رأسها... ولكنَّ سؤاله يبقى مدوّيًا في الآذان: مَن منكم يمكنه أن يشكوني بشرّ أو ينسب إليّ خطيئة؟

عندما يتمكّن إنسان، بكلمة ما من فيه، أن يقيم ميتًا، أو بلمسة من يده أن يفتح عينَي الأعمى ويطهّر الأبرص من مرضه، فهنالك موقف سليم واحد يمكن للإنسان العاقل أن يتّخذه، ألا وهو أنّ ما يحدث إنّما بقوّة من الله.

عندما عاد تلاميذ يوحنّا إليه بما سمعوا وشاهدوا، ما تردّد لحظة في استنتاج الحقيقة من ذلك، ألا وهي أنّ يسوع هو المسيح المخلّص وهو ابن الله المتجسّد.

لن يوازي وقع الكلمات يومًا قوّة الأعمال. لقد أدرك المسيح ذلك كما نعيه نحن أيضًا، وكما يعرفه جيّدًا صاحب متجر الزهور الذي يريدك دائمًا أن تستعيض عن الكلمات بالأزهار.

لذلك أتت حياة يسوع الناصريّ مليئة بالأعمال ولا سيّما المدهشة منها. فقدرة الله



بدت جليّة فيها، ويسوع الذي كان «يعمل أعمال أبيه» غدا أسطع صورة لحضور الله الفاعل في الكون.

وهكذا ظهر هو للكون إلهًا متجسّدًا كلّيّ القدرة، وتجلّى ذلك حيث توقّعه الناس وحيث لم ينتظروه. فهنا ماء يتحوّل خمرًا، وهناك أبرص يطهر، وهنالك شبكة فارغة تعجّ فجأة بالسمك الكبير... وهاك إنسان يمشي على الماء وخمس خبزات وسمكتان تطعمان الجموع الغفيرة... وتينة تيبس لساعتها، وشابّ ينفض عنه أكفان الموت ويقوم.

هذه المعجزات لا تكوّن لائحة كاملة بما اجترحه يسوع، وهي ليست ببرهان على قدرة الله التي فيه فحسب، بل هي أيضًا بمثابة حافز لي ولك لكي نولي ثقة عمياء بالإله مصدر ذلك الحبّ الذي يُترجم قدرة فائقة تشفي كلّ مرض وتبدّد كلّ خوف.

يأوي كلّ منّا إلى فراشه وفي جعبته جمّ من الهموم تشاطره المرقد وتستيقظ معه ثانيةً في الصباح التالي. ولن تنفكّ تنخر منه العقل والقلب إلى أن يعي أنّه وتلك الهموم في يد الله الأمينة

وفي كنف رحمته اللامتناهية، وأنّ تلك اليد ستنبسط فوق همومه تمامًا كما ارتفعت فوق عاصفة البحيرة فسكّنتها، ولامست قروح أبرص كفرناحوم فطهّرته.

ولكنّ ذلك يبقى مشروطًا في أن يتذكّر كلّ منّا كلام القدّيس بطرس في رسالته الأولى أن «ألقوا عليه جميع همّكم فإنّه يُعنى بكم»، وأن نصغي إلى يسوع نفسه يدعو كلّ متعب بيننا، ومَن أنهكه ثقل الأحمال أن «تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم...». إنّه لا ينفكّ يقرع بابك وبابي كلّ يوم، فهلّا مكّنتنا ثقتنا به من أن نسمع صوته ونفتح الباب فيدخل «ويتعشّى معنا ونتعشّى معه»، فيكسبنا غذاؤه نعمة جديدة تمكّننا من أن نواجه بكلّ ثقة وفرح هموم الدنيا ومتاعبها كافّة!

بعد أن تأمّلنا قليلًا في طبيعة المعجزات وأهدافها، دعنا الآن نعيش مع يسوع بعضًا من تلك المعجزات التي اجترحها، علّنا نعي حقيقتها ونتعرّف من خلالها إلى حضور الله القدير المحبّ في قلب آلام الناس وشقائهم.





أولى تلك المعجزات التي أريد أن أتأمّل فيها وإيّاك هي تلك التي حدثت في قرية صغيرة من الجليل تدعى كفرناحوم، وهي على مقربة من بحيرة طبريّا أو بحر الجليل (مر ٢/ ١-١٢).

فبينما يسوع عائد إلى الناصرة من الشمال أدرك الناس أنّه سوف يمرّ بكفرناحوم، فتجمّع الكثير منهم ليسمعوا تعاليمه. وإذا بشابّ مقعد حمله أربعة من أصدقائه إلى المنزل حيث كان يسوع يعلّم. يبدو أنّهم كانوا من المسعفين المتمرّسين، ولكنّهم كانوا أيضًا مصمّمين كلّ التصميم على أن يلقوا بذلك المخلّع على أقدام يسوع. فلمّا تبيّن لهم أنّ الدخول من الباب غدا متعذّرًا بسبب تزاحم الناس، صعدوا بصديقهم سطح المنزل، وهناك أحدثوا فتحةً في السقف ودلّوه إلى أن استقرّ على أقدام يسوع. فلبث مستلقيًا على فراشه بلا حراك، وفي نفسه خشية من أن يكون ما قام به أصدقاؤه قد أثار غضب المعلّم.

أمّا يسوع فقد خفق قلبه رحمةً لما أحسّ به

من بؤس في نفس ذاك المقعد، كما أنّه كان لإيمان أصدقائه في نفسه أعمق الأثر. فتقدّم قليلًا نحوه وانحنى من فوقه وحدّق إلى وجهه. ولمّا تلاقت أعينهما أحسّ المخلّع بأنّ ما يشعّ من عينَي يسوع هو ما اعتاد أن يصادفه من نظرات شفقة تشعره بمدى التعاسة التي فيه. ها هو الآن في حضرة شخص تشعّ من عينيه قوّة تشعر بأنّها مزيج من الرحمة والاحترام والثقة، وكأنّها تتخطّى الماضي والحاضر لتستشرف المستقبل، وكأنّها تعد لانطلاقة جديدة ملؤها الرجاء، وكان قد هجر نفسه منذ أن خلّع أوصاله المرضُ فأقعده.

فقال له يسوع: «تشجّع يا بنيّ، فقد غُفرت لك خطاياك». أحدثت تلك الكلمات موجة من الضجيج في القاعة... وبدت على الوجوه علامات من العجب، وتساءل بعضهم هل ما سمعوه حقيقة أم إنَّ آذانهم قد أخطأت فيما سمعت؟ وراح بعضهم يردّد في نفسه وبصوت خافت كلمات المعلّم: «مغفورة لك خطاياك... مغفورة لك...». وفي ذاك الترداد تساؤل عمَّن يمكنه أن يغفر الخطايا إلّا الله وحده؟ ومن

إنَّه لا ينفكّ يقرع بابك وبابي كلّ يوم، فهلّا مكّنتنا ثقتنا به من أن نسمع صوته ونفتح الباب ليدخل «فيتعشّى معنا ونتعشّى معه؟».

المعلوم أنّ يسوع أسند إلى تلاميذه بعد ذلك مغفرة الخطايا باسمه. ولكن حتّى تلك اللحظة التاريخيّة كان غفران الخطايا ما زال محصورًا بالله وحده. وكان اليهود يدركون تلك الحقيقة. لذلك أثار قول يسوع ما أثار عندهم من عجب: إنّه كان في الحقيقة يعني أنّ القدرة التي هي لله إنّما هي فيه، أي إنّه كان يدّعي أنّه هو الله. وكان ذلك في عرفهم تجديفًا صارخًا. والتجديف يعني أنّه، وهو مجرّد إنسان، قد استباح لنفسه مغفرة الخطايا التي هي لله من دون سواه، إذًا هو يزعم بوضوح أنّه الله.

لقد كان في قوله إنّه الله تجديف صارخ، لو أنّه لم يكن في الحقيقة كذلك. وفي كلّ ذلك ما كان العجب الذي عمّ تلك القاعة قد بلغ أوجه، ولا الجوّ «المكهرب» الذي ساد في نفوس بعض الكتبة الحاضرين أخذ مساره حتّى النهاية، لو أنّ الأمور استقرّت عند ذاك الحدّ. بيد أنّ الذي حدث ما كان في الحقيقة إلّا البداية. وعينا يسوع، في كلّ ذلك، ما فارقت وجه المخلّع لحظة واحدة. ولكنّ نظرته الثاقبة التي كانت تدرك أنّه ما من عصفور، وهو يباع بنصف فلس، يسقط على



الأرض من دون إرادة الله، وكانت تعي كذلك كلّ ما يجول في أعماق القلوب، جعلته يسأل بصراحة: «لماذا تقولون هذا في قلوبكم؟»، لم يلقَ بالطبع سؤاله إجابة. إنّه لمربك حقًّا أن يكشف لك إنسان ما في عمق نفسك من أفكار ويطرحها بوضوح على مسامع الحاضرين!

ثمّ طرح يسوع سؤالًا آخر: «أن يُقال للمُقعد: غُفِرت لك خطاياك، أم أن يقال: قم فاحمل فراشك وامش؟»، ولا عن هذا السؤال أيضًا أجابوا. بيد أنّ صمتًا كبيرًا خيّم على الجمع الذي كانت تعجّ به القاعة، وكان أشبه بالهدوء «المكهرب» الذي ينذر بالعاصفة. فما بدا للعقل جليًّا أضرم في القلوب مزيجًا من الحقد والغضب الذي وحده التجديف يحدثه في نفوس مَن نصّبوا أنفسهم مدافعين عن «حقوق الله»، ولكن من دون أن يحسبوا لحقوق الإنسان أيّ حساب.

وفي حين كان جوّ العداء يتكثّف باضطراد، ما انفكّ يسوع ينظر بذلك العطف نفسه إلى هذا المقعد المطروح على قدميه، وكأنّ كلّ ما يثور حوله من عواصف في النفوس، وما يجول من مخطّطات في العقول، هو بمثابة تفاصيل تافهة أمام

عنف آلام ذاك الشابّ وعمق إيمان أصدقائه. فأعاد الكرّة مجدَّدًا وكأنّ شيئًا من حوله لم يحدث، وكأنّه يريد أن يثبت قوله بالفعل «إنّه الله». قال لكلّ مَن له أذنان سامعتان، وعيناه تشخصان إلى المُقْعد: «لكي تعلموا أنّ ابن الإنسان له سلطان يغفر به الخطايا في الأرض، لكَ أقول: قم فاحمل فراشك واذهب إلى بيتك». ويا للدهشة! فها هو ذاك الذي حمله أربعة ودلّوه من السقف أمام يسوع، ذاك الذي طالما كان محطّ شفقة أهل البلدة جميعًا، ها هو يثب واقفًا ويحمل سريره ويخرج بمرأى من جميع الناس. ويقول لنا القدّيس مرقس: «لقد دهش الناس جميعًا ومجّدوا الله وقالوا: ما رأينا مثل هذا قطّ».

إنّنا لم نسمع بعدئذ عن ذاك الشابّ شيئًا. لقد حمل سريره وذهب إلى بيته كما أمره يسوع أن يفعل. ولكنّه ما من شكّ في أنّه، طيلة حياته، كان يذكر تلك الكلمات الحاسمة التي محت من الوجود ما كان يقلقه في الماضي، وفتحت له باب الحياة والمستقبل مجدَّدًا: «تشجّع يا بنيّ لقد غُفِرت لك خطاياك... قم فاحمل سريرك واذهب إلى بيتك».



ولا إخاله يستطيع أن ينسى نظرات يسوع التي ظلّلته بذلك النوع من العطف والرحمة اللذين أطلقا في نفسه وفي قلبه دفعة جديدة من الحيويّة أعادت إليه الأمل في الحياة، قبل أن بعثت في جسده القدرة على أن يقوم ويحمل... ويمشي. وهكذا تمجّد الله في خليقته الجديدة هذه.

فلو لم يكن المسيح هو الله لكان الله، في شفاء ذاك المعقد، بدا وكأنّه يثبت بالفعل قولًا رأى فيه مَن ادّعوا المعرفة في أمور الدين أنّه تجديف. بيد أنّ الحقيقة التي تبدو جليّة هي أنّ المسيح هو الله. وهذا ما سبق وأعلنه صوت الله من السماء قائلًا: «هذا هو ابني الحبيب الذي به رضيت».

## إحياء ابن أرملة نائين

المعجزة الثانية من معجزات يسوع التي أودّ أن أستعرضها وإيّاك، هي إعادة الحياة إلى وحيد أرملة نائين: «يا فتى، أقول لك: قم» (لو ٧/ ١١-١٧). نائين قرية صغيرة في الناحية الجنوبيّة من الجليل وهي تقع في سفح جبل طابور.

يخبرنا لوقا الإنجيليّ أنّ يسوع كان مارًّا من هناك لمّا صادفته جنازة. وهو على مقربة من مدخل القرية سمع من بعيد أصوات نسوة تبكين وأخريات تندبن. وعندما اقترب الموكب من يسوع وتلاميذه، وقفوا بصمت إلى جانب الطريق احترامًا للميّت وذويه.

كان الميّت في مستهلّ شبابه. توقّفت حياته وهو لم يذق بعد من طعمها شيئًا، وقد بدا الحزنُ على وجه الناس عميقًا. وما أضاف إلى الحزنُ ألمًا جديدًا رؤية سيّدة كادت أن تنهار تحت عبء آلامها وهي تحاول السير وراء النعش، وكان الميّت وحيدها وهي أرملة، وكان محطّ كلّ آمالها والأحلام. أتى الموت وانتزع منها فجأة كلّ تلك الآمال والأحلام. ولأوّل مرّة أحسّت بمثل هذا الحزن، وكانت تختبر كيف يمكن للإنسان أن يتوق إلى الموت إذا ما فقدت حياته معناها، وكم في مثل ذلك الشعور من آلامٍ تمزّق القلب والأحشاء.

ما من إنسان يمكنه أن يختبر مثل هذا المشهد من دون أن يشعر بعميق الأسى في قرارة نفسه. وهذا ما أحسّ به يسوع. «فلمّا رأى الربّ



تلك الأرملة أخذته الشفقة» يقول لنا لوقا الإنجيليّ، فبادرها بما كنّا أنتَ أو أنا قلناه لها بكلّ بساطة وعفويّة: «لا تبكِ»، هذا كلّ ما قاله. «ثمّ دنا من النعش، فلمسه فوقف حاملوه»، وهم يتساءلون عمّا يريده منهم ذاك الرجل الغريب. وفجأة توقّف العويل وتركّزت أنظار الجمع عليه وهم في عجلة من أمرهم... والمدافن ما زالت بعيدة... ولا بدّ أنّهم ظنّوه مصابًا بشيء من الخلل في عقله. وواقع الأمر أنّه ليس مألوفًا أن يتجاسر شخص، وهو في كامل عقله، فيوقف جنازةً في منتصف طريقها إلى المدافن: وقد تيقّنوا من ذلك لمّا رأوه يقترب من الميّت وينادیه قائلًا: «يا فتى، أقول لك، قم»، ولكن سرعان ما صعقوا واستولى عليهم خوف عظيم لمّا رأوا ذاك الشابّ الميّت يجلس ويتكلّم. وكلّ ما فعل يسوع بعد ذلك، يقول لنا الإنجيليّ إنّه «سلّمه إلى أمّه» وتابع طريقه... وما إنْ استفاق الناس من صدمتهم حتّى أخذوا يمجّدون الله ورأوا أنّ ما حدث إنّما هو رسالة من لدن الله. لذا قالوا: «قام فينا نبيّ عظيم، وافتقد الله شعبه». نعم لقد افتقد الله شعبه!

فيا أرملة نائين، أيّتها السيّدة التي خلّدت رحمةُ الله ذكراها، ها نحن، بعد ألفَي سنة، ما زلنا نتذكّر كيف انحنت رحمة الله على حزنك، فحوّلت تلك الدموع إلى صرخات فرح تشيد بحبّه تعالى وعطفه. وما من شكّ في أنّك ما نسيتِ، إلى آخر ساعة من عمرك، قدرة الله وعمق حنانه، وما انفكّت كلمات يسوع ترنّ متردّدة في أذنيك وفي قلبك: «لا تبكِ». وقد قضيتِ الكثير من الوقت تتذكّرين تلك اللحظات وأمامَ عينيك ماثل ذاك الوجه المنير وتلك اليد السمحاء التي أعادت إليك ابنك ومعه الأمل وحبّ الحياة.

هل خطر ببالك أنّ ذاك الصوت هو الذي يمكننا أن نصغي إليه أيضًا في حفيف أوراق الصفصاف وخرير سواقينا؟ وتلك اليد الناعمة هي هي التي سطّرت خطوط السموات ورسمت تعرّجات الهضاب، وبرت في أوراق الخريف لونها الذهبيّ.

أيّتها السيّدة الأرملة، إنّه هو نفسه قد أعطاك ولدك مرّتين. مرّة لمّا تكوّنت الحياة في أحشائك بقدرته الإلهيّة، ومرّة ثانية عندما أعاد إليه الحياة بعدما اختطفه الموت من بين يديك. قدرته هي



هي في الأمس واليوم وإلى الأبد.

إنّ مثل هذه المشاهد تبهج القلب، ولكن أهمّ ما فيها أنّها تنير عقل مَن يتوق إلى أن يستنير. ولا بدّ لكلّ منّا وهو يتأمّل فيها من أن يهتف قائلًا: «هذا هو حقًّا ابن الله»، تمامًا كما فعل ذاك الرومانيّ منذ ألفَي سنة بعد أن فتح جنبه بحربة.

وربّ سائل، ما الذي يفيدني اليوم إذا ما آمنتُ بشخص اسمه يسوع عاش في فلسطين منذ ألفَي سنة وعلّم كمَن له سلطان، وقال إنّه ابن الله، وغفر الخطايا وقام بأعمال لا قدرة عليها لأحد غير الله، أو لمَن وهب له الله تلك القدرة عليها. ثمّ ماذا؟

ماذا تعني لي اليوم بئر يعقوب وكفرناحوم ونائين؟ وهل يعنيني اليوم أنّ الله أتى إلى هذه الدنيا في الماضي السحيق، لألفَي سنة خلت؟ ثمّ ماذا؟ إنّه سؤال طرحه ملايين البشر على أنفسهم وما زالوا...

والحقيقة أنّ المخلّص لم يكن حاضرًا في كفرناحوم ونائين وإلى جانب بئر يعقوب فحسب، ولا تجلّت قدرته فقط على شفاء المقعد

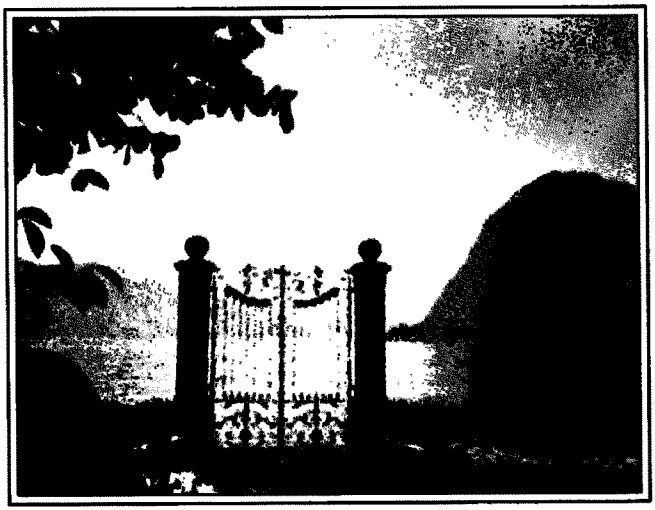

إنّ تلك اليد الناعمة هي التي سطّرت خطوط السموات ورسمت في الهضاب تلك التعرّجات.



والأعمى، وفي تطهير الأبرص وغفران الخطايا. إنّ في كلماته نورًا وحياة لكلّ إنسان وفي كلّ زمان ومكان. إنّ رحمته لم تنضب بعد ثلاث سنوات من التبشير والشفاء. فكلّ ما هو منه لا نهاية له ولا حدود. وما وعد به من مكافأة «لم ترها عين ولا سمعت بها أذن»، لم تتوقّف مع رحيله عن هذه الأرض إنّما هي باقية مدى الدهر.

وإخوته «هؤلاء الصغار» الذين شملتهم رحمته وفاض عليهم حبّه لم تحوهم حدود أمّة ولا اقتصر وجودهم على حقبة محدودة من الزمن.

المخلّص واقفٌ على بابك وهنالك سيبقى يقرع كلّ باب، وحتّى تلك الأبواب المحكمة الأقفال... فالقدرة التي انهمرت يومًا من يديه في نائين وفي كفرناحوم هي لك إذا ما قرّرت أن تتقبّلها بأيد ممدودة وقلب منفتح.

والتعاليم التي ألقاها على الناس منذ ألفَي سنة ما زالت اليوم مصدر حياة، تمامًا كما كانت آنذاك، وهي نورٌ لك ولي اليوم حيثما وجدنا. والتحدّي الذي يطرحه عليك وعليّ هو أن نؤمن أنّنا في عداد «إخوته الصغار» الذين أحبّهم

وأحبّهم حتّى النهاية. لنثق بذلك الحبّ ونلقي بهمّنا عليه.

هذا ما تعنيه اليوم وقفته على بئر يعقوب، وما يقوله لنا شفاء مقعد كفرناحوم: فما زال ماؤه الحيّ يتدفّق في قلوبنا وقدرته الشفائيّة تعضد ضعفنا وتشدّد عزائمنا.

لقد كان كلّ منّا حاضرًا منذ الأزل في ذهنه. إنّه في نظرته الشاملة اللامتناهية مدرك كلّ شيء، ومعرفته الإلهيّة تعي الكون بأسره في لحظة واحدة والخليقة بأسرها أمامه في حاضر مستمرّ. إنّه يرى العصفور الذي سقط البارحة وزنابق الحقل التي ستزهر غدًا... ولقد كنّا أنتَ وأنا في ذهنه في كفرناحوم ونائين وعلى جبل الجلجلة. وكنتَ بباله أيضًا أنت الذي تنكبّ على التفكير والتخطيط في مكتبك، وأنت الذي تعمل في قعر المناجم أو تجوب السموات في مكّوك فضائيّ. وأنت أيضًا شملتك منذ الأزل عنايته، يا مَن تقبع في سجنك المظلم أو أنت المتنعّم برغد العيش في قصرك أو في منزلك الدافئ أو في كوخك المتواضع... أكنتَ تشعر بالدفء الإنسانيّ أو أنّ الوحشة والهمّ يحرمانك من



نومك... وأنتَ أيّها القارئ العزيز كنتَ أيضًا في ذهنه منذ الأزل، وأجمل ما في ذلك كلّه هو أنّه يحبّك. أحبّك منذ الأزل، قد شاء أن يدخل معك في شراكة فيملكك ويملّكك ذاته، وكأنّ به حاجة إليك لتكون أنت هو إلى جانب كلّ من «إخوته هؤلاء الصغار».

قد يصعب عليك الآن أن تصدّق هذا كلّه. ولكن سيأتي يوم تنجلي فيه الأمور أمام عينيك، حين يتمزّق ذاك البرقع الشفّاف الذي يفصل بين حياتنا والأبديّة. آنذاك يتّضح كلّ شيء لنا إذ نراه وجهًا لوجه... ولكن يمكنك أن تنعم بشيء من فرح اللقاء هذا الآن، فهو واقفٌ على بابك... إنّه على مدخل حياتك فافتح له باب قلبك. تعال إليه إنّه في انتظارك، فتعيش معه في شراكة لا نهاية لها، وتختبر في نفسك تلك القدرة التي تجلّت في كفرناحوم كما في نائين. وإذا كنتَ تجهل ما يريد المسيح أن يقوله لك اليوم، فربّما كان ذلك لأنّك أقفلت بابك في وجهه، وصمّت أذناك إلى سماع صوته على الباب يناديك... إنّه هنا الآن ينتظرك وينتظرني ليدخل حياتك وحياتي ومعه النور والسلام اللذين لا يمكن لأحد أن

يسلباهما منّا. فهلّا أصغينا إلى صوته كي نفتح له الباب فيدخل ويتعشّى معنا ونتعشّى معه؟

## إحياء لعازر

المعجزة الثالثة التي أودّ أن أتأمّل وإيّاك فيها هي معجزة إقامة لعازر من الموت. «أنا القيامة والحياة، مَن آمن بي، وإن مات، فسيحيا، وكلّ مَن يحيا ويؤمن لن يموت للأبد».

لنرجع معًا إلى معجزة أخرى في حياة يسوع، يسردها لنا القدّيس يوحنّا في إنجيله (يو ١١/١-٤٥). ولنتذكّر دائمًا أنّه، كما في كفرناحوم ونائين، كان كلّ منّا أيضًا في ذهنه هناك في بيت عنيا. بيت عنيا قرية صغيرة في شمال اليهوديّة، وهي لا تبعد كثيرًا عن أورشليم. توفّي هناك شخص اسمه لعازر، كان من أصدقاء يسوع الأعزّاء وكان له أختان، مرتا ومريم. يبدو أنّ يسوع كان يجعل من تلك العائلة إحدى محطّاته وهو يتنقّل بين الجليل واليهوديّة.

حدث أن مرض لعازر. وإذ اشتدّ عليه



المرض أرسلت أختاه مرتا ومريم خبرًا عاجلًا إلى يسوع تنبآنه بذلك، وكانتا على يقين من أنّه سوف يسرع إلى زيارته ليشفيه. وإذا حدث لنا أن وجدنا أنفسنا إلى جانب شخص عزيز تتدهور حالته الصحّيّة بسرعة حتّى أخذ يشرف على الموت، ورحنا نبحث عمّن يساعد في إنقاذ حياته، لا بدّ أن نتفهّم طبيعة شعور الأختين، وكم كان في طلبهما يسوع من إلحاح كي يأتي إلى نجدة العائلة في ذلك الظرف الحرج.

الجواب الذي تلقّياه من يسوع كان بمثابة صدمة لهما. كانت رسالتهما إليه بسيطة: «يا ربّ إنّ الذي تحبّه مريض». فبدل أن يسرع يسوع إلى بيت عنيا، كما تمنّت مرتا ومريم، أرسل يقول لهما بكلّ برودة: «هذا المرض لا يؤول إلى الموت، بل إلى مجد الله، ليمجّد به ابن الله». ولكنّه كان من الواضح أنّ المريض مشرف على الموت.

وكان صراع بين ثقتهما بيسوع وما يبدو في جوابه من عدم إعارة الأمر الاهتمام الكافي وبالسرعة المنشودة. ولا بدّ أنّهما بحثتا عمّا يعزّيهما في ذلك الجواب... ولكن ما لبث

أخاهما أن فارق الحياة. . .

ومع ذلك، يقول لنا يوحنّا الإنجيليّ، وبالرغم من أنّ يسوع «كان يحبّ مرتا وأختها ولعازر، وبعد أن سمع أنّ لعازر مريض، بقي في مكانه يومين». لماذا تراه أخّر قدومه بهذا الشكل؟

لا بدّ وأنّ حزن مرتا ومريم كان عميقًا وعميقًا جدًّا. وما من شكّ في أنّهما شعرتا بخيبة مريرة وكان لهما على يسوع عتب كبير. كان يسوع صديقًا حميمًا للعائلة وللعازر بنوع أخصّ، ولطالما لجأت العائلة إليه في ساعات الشدّة، ووثقت بقدرته التي بدت جليّة في أماكن عدّة ومناسبات مختلفة، حتّى إنّها حوّلت الماء خمرًا وهدّأت العاصفة الهوجاء. . . وكانت مرتا ومريم قد أملتا بشفاء أخيهما، إذ قال لهنّ إنّ «هذا المرض لا يؤول إلى الموت». ولكن ما غدا مؤكّدًا الآن أنّه، بالرغم من كلّ التطمينات، لعازر قد مات!

ومن الطبيعيّ أن يتساءل المرء، في مثل هذه الحال، هل موت لعازر أدّى أيضًا، في تلك الليلة المظلمة، إلى موت إيمان الأختين بيسوع وحبّهما إيّاه؟



«ثمّ قال للتلاميذ بعد ذلك: لنعد إلى اليهوديّة». فعارضه التلاميذ بقولهم له: «ربّي، قبل قليل حاول اليهود أن يرجموك، أفتعود إلى هناك؟». ولكنّه ما كان يفكّر في نفسه، بل فيما سيفعله للعازر وأختاه. فقال لهم: «إنّ صديقنا لعازر راقد، ولكنّي ذاهب لأوقظه». فأتت ردّة فعل التلاميذ في غاية المنطق، إذ قالوا له: «إذا كان راقدًا فسينجو». آنذاك أخبرهم بوضوح أنّ لعازر قد مات. فخيّم فجأة عليهم سكون حزين، فهم كانوا ينزلون، مع يسوع، ضيوفًا على تلك العائلة في تجوالهم من الجليل وإليه. ثمّ تابع يسوع كلامه قائلًا لهم بصراحة: «قد مات لعازر، ويسرّني، من أجلكم كي تؤمنوا، أنّي لم أكن هناك. فلنمض إليه». ولتتذكّر هنا كذلك أنّنا نحن أيضًا كنّا في ذهنه، وأنّ عمله هذا كان من أجلنا نحن أيضًا كي نؤمن.

وكان توما على يقين من أنّ عودة يسوع إلى اليهوديّة لن تؤول فقط إلى موته، بل إلى موت مَن هم معه أيضًا. ولكن يبدو أنّ كلام يسوع أضرم في تلك اللحظة نار البطولة في قلب توما، فقال لسائر التلاميذ بصوت ينمّ على شعور

بالاستسلام: «فلنمض نحن أيضًا لنموت معه».

وبهذا تحرّكت الجماعة نحو بيت عنيا. وكان يسوع يدرك أنّه سيأتي يوم يفرح فيه التلاميذ أيضًا لأنّ يسوع لم يكن هناك عندما كان لعازر مريضًا. ذلك لأنّ الخبرة التي سيعيشون بعد قليل ستكون لهم مصدر قوّة فيما بعد عندما يتعرّض كلّ منهم إلى العذاب والموت.

وبينما هو يقترب من بيت عنيا علم الناس بقدومه. ولمّا سمعت مرتا بذلك خرجت لاستقباله كما كانت تفعل قبل موت أخيها. وإذ كان يقترب رآها آتية نحوه، فنظرت عيناه الإلهيّتان إلى قلبها ففهم أنّها سوف تعاتبه بقولها: «يا ربّ، لو كنتَ هنا لما مات أخي». ولكنّه أدرك أيضًا عمق إيمانها الذي دفع بها لتتابع كلامها قائلة: «ولكنّي ما زلتُ أعلم أنّ كلّ ما تسأل الله، فالله يعطيك إيّاه». فقال لها يسوع: «سيقوم أخوك». ولكنّ مرتا أخطأت فهم ما قاله لها. لذا أتى جوابها، وفيه بعض عتب ومرارة، إذ قالت له: «أعلم أنّه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير!».

آنذاك نظر يسوع بكثير من الحنان في عينَي مرتا وقد ظلّلهما الاحمرار وأرهقتهما الدموع



التي عادت الآن مجدَّدًا تنهمر منهما، وهمس إليها قائلًا: «أنا القيامة والحياة، مَن آمن بي، وإن مات، فسيحيا. وكلّ مَن يحيا ويؤمن بي لن يموت للأبد. أتؤمنين بهذا؟». أتت إجابتها هذه المرّة نبويّة وفي غاية العمق، إذ أحسّت بذلك الدفء من قلب المسيح يظلّلها، فقالت له: «نعم يا ربّ، إنّي أؤمن بأنّك المسيح ابن الله الآتي إلى العالم».

هذا هو الإيمان الذي ينقل الجبال... الإيمان الذي يُعيد الميّت إلى الحياة!

«أنا القيامة والحياة،
مَن آمن بي، وإن مات، فسيحيا،
وكلّ مَن يحيا ويؤمن بي لن يموت للأبد».

كم من القلوب الجريحة والنفوس المضطربة ستجد راحة لها في هذه الكلمات؛ تلك التي تجلس في غرف شحّ النور فيها وتنتظر ملاك الموت بصمت رهيب، وقلوب آباء وأمّهات بلغهم خبر وفاة أبنائهم على أرض معركة نائية، أو في قعر محيط ثائر ابتلعته العاصفة.

وكم من حبيب وجد في تلك العبارات رجاء وهو يقف في مقبرة يودّع مَن أحبّ، وقد أثقل قلبه

فراغ هائلٌ خلّفه شبح الموت:

فراغ لن يملأه بعد اليوم أحد،
ونغمات أصوات عذبة اضمحلّت في ظلمات الغيب إلى غير رجعة،
وأيد ينبع منها اللطف قد انشلّت، وابتسامة ملؤها الحنان كعقد الياسمين ذبلت...

وتبقى التعزية الحقيقيّة الوحيدة في تلك الحالات كافّة كامنة في قول المعلّم: «أنا القيامة والحياة».

وقد سكبت على قلب مرتا بلسمًا من العزاء جديدًا أدركت فيه أنّ الموت إنّما هو مدخل... بداية... ولادة جديدة... وزمن ربيع. وهكذا تبدّدت الآلام وانبثق لها فجر جديد.

سيبقى العالم يهتزّ بأسره كلّما أتى الموتُ يسلب إنسانًا قطعةً من قلبه...

وأجهزة الاتّصال من أرض المعارك لن تنفكّ ترمي بسهامها إلى قلوب الأزواج وقلوب الآباء والأمّهات في أزمنة الحروب... وتلك القلوب ستدمي وتدمي... ولكنّ مرارة الحزن والأسى وآلام القلب تلك لن تؤول بالناس



إلى اليأس...

هنالك بلسمٌ جديد وعزاء ورجاء: «أنا القيامة والحياة». هذا هو الأمل الذي يفعم قلب كلّ شابّ يسير نحو أرض المعركة... وذاك هو الرجاء الذي يتفجّر في النفس عندما يستودع طبيبُ عناية الله مريضًا تعذّر على العلم شفاؤه...

الرجاء الذي سيبلسم يومًا جراح قلبك وقلبي عندما نفقد حبيبًا أو نقف نحن على مشارف الأبديّة... إنّه المرتجى لكلّ شخص يؤمن بالذي قال: «أنا القيامة والحياة. مَن آمن بي وإن مات فسيحيا».

وإذ عادت مرتا تخبر مريم بقدوم يسوع خرجت هي بدورها مسرعة للقائه، فلحق بها الجمع وتوجّه الكلّ مع يسوع إلى حيث دفن لعازر لأربعة أيّام خلت. ولمّا اقتربوا من المكان سألهم بشيء من اللهفة: «أين وضعتموه؟». وعندما بلغ القبر يوجز لنا يوحنّا الإنجيليّ ما حدث بكلمات ثلاث من الصعب جدًّا على القارئ أن ينساها: «فدمعت عينا يسوع».

ماذا تعني لنا تلك الدموع؟ أتراها تحدّثنا عن ضعف في طبيعة الإنسان؟ عن عدم تمكّن المرء أحيانًا من السيطرة على مشاعره؟ أترى أنّ خفقات قلب يسوع تسارعت إلى أن ضاق بها صدره ففاضت دموعًا من عينيه؟

هنالك جواب واحد عن تلك التساؤلات: لقد بكى يسوع لكي تدرك مرتا ومريم، ونعرف أنت وأنا كم أنّ قلب يسوع يحزن لأحزان البشر، وكم هو يشاركك ويشاركني عمق الأسى الذي نحسّ به عندما تزعزع حياتنا عاصفة الموت.

إنّ حبّ يسوع لن ينفكّ ينحني على جراح البشريّة يبلسمها ويلج القلوب المنسحقة يعيد إليها نبضات الرجاء. . .

وما تلك الدموع التي تفجّرت من عيني يسوع وتدحرجت فجأة على خدّيه، سوى علامة لما في قلبه من حبّ لكلّ متألّم، ومن عمق مشاركة للإنسان في ما يمرّ به من أحزان ويعترض حياته من مآسي.

إنّنا غالبًا ما ننسى دموع يسوع تلك فنعزل أنفسنا عمّا يكمن فيها من عزاء، وحده الكفيل في



أن يبلسم ما في نفوسنا من جراح، ويملأ الفراغ والوحشة التي تعكّر صفو حياتنا.

يبدو لي أنّ أيّ إنسان لن يحسّ يومًا وكأنّه وحيد في حزنه، أو أن ما مَن يبلسم جراحه، إذا ما تذكّر تلك الكلمات الثلاث: «فدمعت عينا يسوع». فعينا يسوع، المرغرغتان بالدموع، تبقيان منبعًا حقيقيًّا للعزاء، ومصدرًا صحيحًا للقوّة، إذا ما عرفنا كيف ننظر إليهما حين نكون في شدّة.

كان لعازر قد دفن في مغارة وضع على مدخلها حجر. فقال يسوع: «إرفعوا الحجر». فشعرت مرتا بحراجة الموقف. وإنّني أراها تقترب من يسوع وتهمس في أذنه علّها تحول دون دخوله المغارة، فيتعرّض لمشهد لا بدّ وأن يزيد من ألمه: «يا ربّ، لقد أنتن، فهذا يومه الرابع».

فأتى جواب يسوع، وكأنّ فيه بعض ملامة، يشير، ولو بشكل مبطّن، إلى أنّ قدرة الله ستبدو جليّة مرّة أخرى، فتبدّل حزن بيت عنيا إلى فرح عامر: «ألم أقل لك إنّك إن آمنتِ ترين مجد الله؟» فلم يعد هناك من مجال للتردّد، فرفعوا الحجر ورفع يسوع عينيه وقال: «شكرًا لك يا

أبتِ، على أنّك استجبتَ لي وقد علمتُ أنّك ستستجيب لي دائمًا أبدًا، ولكنّي قلتُ هذا من أجل الجمع المحيط بي، لكي يؤمنوا بأنّك أنتَ أرسلتني».

نحن على وشك رؤية غيوم الشكّ تتبدّد بقدرة الله، ويتدفّق نوره مشرقًا على أبناء تلك البلدة، وعلينا نحن أيضًا في كلّ زمان ومكان.

ثمّ صاح بأعلى صوته: «يا لعازر، هلمّ فاخرج».

فتوقّفت كلّ حركة وخيّم على الجمع سكونٌ رهيب، وتركّزت العيون على مدخل المغارة والقلوب تعيش لحظة انتظار، وها هو يسوع يضع نفسه وكلّ مصداقيّته على المحكّ.

إذا كان هو الله فسوف يثبت ذلك من دون شكّ، وستشهد عيون الناس ما يفوق كلّ قدرة بشريّة. ولكن إذا رفضت الحياة أن تنبعث من جديد في أشلاء ذاك الذي دُفن هنا منذ أربعة أيّام، تبدّدت كلّ آمال الناس بيسوع إلى غير رجعة، وأُدرج اسم ذاك الجليليّ في عداد أولئك الأنبياء الكذبة الذين حفلت بهم كتب التاريخ.



وفجأة حدث ما أذهل عقول الحاضرين، فوقفوا من دون حراك وكأنّ كلّ الدنيا من حولهم قد توقّفت، غير متيقّنين إذا ما كانوا في حلم أو أنّ ما يحدث هو حقيقة! «خرج الميّت مشدود اليدَيْن والرجلَيْن بالعصائب، ملفوف الوجه في منديل».

كان هذا الحدث أحد آخر ما قام به يسوع. ويقول لنا الإنجيليّ يوحنّا إنّه عندما بلغ الخبر عظماء الكهنة والفرّيسيّين، حدث في صفوفهم اضطراب عظيم. فعقدوا مجلسًا توافقوا فيه على أنّ شيئًا ما يجب القيام به لوضع حدّ لما يحدث، إذ إنّهم قالوا: «إذا تركناه وشأنه آمنوا به جميعًا، فيأتي الرومانيّون فيدمّرون حرمنا وأمّتنا».

كان مشهد روما الغاضبة طاغيًا على عقول أولئك الرجال وقلوبهم، فقرّروا أنّ الأمر لا يقبل المجازفة، فابتسامة روما تبقى فوق كلّ اعتبار، ورضاها أوّل المبتغى. فماذا يفيدهم إذا ما ربحوا العالم كلّه وخسروا ابتسامة روما؟

لو قيّض لأولئك الفرّيسيّين أن يقرأوا النبوءات وينظروا إلى الأمام، كما بوسعنا نحن

الآن أن ننظر إلى الوراء، لكانوا قد أدركوا هشاشة ذاك المارد الجبّار، وكيف أنّه سيأتي يوم يرقد فيه منسيًّا تحت غبار الزمن، ويغدو مجرّد كومة من العظام البالية، ومجموعة آثار ينكبّ على دراستها الباحثون في علم الجيولوجيا ومحبّو عظائم التاريخ.

ولو قيّض لهم أن يدركوا كم أنّ تلك البذور التي زرعت في نائين وكفرناحوم وبيت عنيا سوف تثمر أضعاف أضعاف، ترويها دماء ملايين الشهداء، ويغذّيها الثبات في وجه الاضطهاد، فتنمو لتمتدّ إلى أربعة أصقاع الأرض، قافزة فوق هضاب الدنيا وأوديتها على مدى ألفَي عام من الزمن.

لو قيّض لعيونهم أن ترى لما كان يوحنّا الإنجيليّ تابع كلامه قائلًا: «فعزموا منذ ذلك اليوم على قتله».

وكما أنّ الفرّيسيّين صُعقوا «كيف أنّ العالم كلّه يتبع يسوع»، وما ارتاح لهم بال حتّى قتلوه معلّقًا على خشبة، كان في مخطّطهم أيضًا أن يسلبوا لعازر تلك الحياة التي أعادها يسوع إليه ثانيةً.



لا غَرْوَ في ذلك، فإنّ مثل هذا الشاهد على قدرة الله إنّما يشكّل خطرًا كبيرًا. فإذا ما استمرّ هذا القائم من الموت يسرح ويمرح، متجوّلًا في الشوارع كما يشاء، فسوف يشكّل صفعة كبرى للإمبراطوريّة، ويكون بمثابة علامة تذكّر الناس بأنّ في العالم قدرة تفوق قدرة روما. إنّ هذا الرجل يشعل نيران الحماسة ليسوع في كلّ مكان، وغدا حضوره بمثابة رسالة من السماء تدوّي في أرجاء الأرض كلّها صارخة: «أنا القيامة والحياة». إنّ هذا الأمر لا يمكن السكوت عنه.

يبدو الآن أنّ كلّ ما كان ينادي به يسوع أصبح متجسّدًا في هذا الإنسان القائم من الموت. الرسالة تتجوّل في الأسواق كما أنّها تطوف في أرجاء الهيكل أيضًا. والناس الذين أتوا ليفرحوا مع لعازر وأختيه هم الآن يبحثون في كلّ مكان عن ذاك الذي أقام لعازر من الموت، يسوع الذي من الجليل، لأنّهم يودّون أن يصغوا إليه.

لقد أحسّ الفرّيسيّون بالخطر الذي يداهم سلطتهم من جرّاء شهادة لعازر، وراحوا يفكّرون في أنّ مثل هذه الظاهرة لن تُعالج إلّا بقتل

صاحبها. ويحمل لنا التقليد أنّ كلّ أثر للعازر تبدّد بين ليلة وضحاها ولم يعرف عنه أحدٌ شيئًا.

ولكنّ الحقيقة أنّ لعازر لم يكن وحيدًا وزمن الأعاجيب ما زال قائمًا. الشاهدون للمسيح اليوم متفرّقون في كلّ أصقاع الأرض، وما زال العديد منهم يشهدون له كلّ يوم ومن بينهم مَن سيستشهدون. إنّ كلًّا من هؤلاء صوت صارخ ينادي بقدرة الله ورحمته، وهو نورٌ يضيء سبيل العديد من الناس إليه.

فحيثما يوجد إنسان يحيا للمسيح ويشهد له، هناك لعازر جديد، هناك شعاع من نور القيامة يخترق الظلمة وينير القلوب، فيتردّد فيه صدى كلمات يشعّ منها الرجاء، وتذكّر بوعد يبعث الثقة بالحياة في مَن خيَّم على قلوبهم شبح الموت ويقول لهم مجدَّدًا: «أنا القيامة والحياة».

لقد نهل كلّ منّا الحياة من ذاك النبع الفيّاض نفسه، وكلّ منّا قد سمع يومًا، وبأشكال مختلفة، ذاك الصوت الذي أخرج لعازر من القبر يدعوه إلى أن يخرج من ذاته ومن خموله، وينبعث من تقوقعه وخوفه... وأن ينطلق مجدَّدًا لتشعّ من فكره ومن قلبه أنوار متجدّدة أبدًا، لأنّ فرح



القيامة الذي لا ينضب هو الذي يجدّد فيها الحياة كلّ يوم وفي كلّ لحظة. إنّ صدى الكلمات التي سمعتها مرتا ومريم في بيت عنيا ما زال يدوّي في آذان البشر وقلوبهم:

«أنا القيامة والحياة،

مَن آمن بي، وإن مات، فسيحيا،

وكلّ مَن يحيا ويؤمن بي لن يموت للأبد».

يجب أن يفرح كلّ منّا بأنّ يسوع ما كان هناك لمّا مات لعازر، فقيامته دفع جديد لإيمان كلّ منّا وتذكير بدعوة المسيح لي ولك، كي نخرج من قبر خوفنا كلّ يوم إلى نور حياة وإلى قيامة هي في تجدّد دائم لا يتوقّف.

## «بعد ثلاثة أيّام سأقوم»

الكلمة الأخيرة في ألوهة يسوع تفوّه بها هو ذاته حين قام من بين الأموات. فنور الحبّ يسطع في الأعمال أكثر منه في الأقوال. وما ظهر حبٌّ يومًا أسطع من ذاك الذي تجلّى على تلّة من تلال اليهوديّة تسمّى الجلجلة منذ ما يقارب الألفَي سنة. وما عرف التاريخ حبًّا أعظم من ذاك الذي

تعانقت فيه الوداعة والشجاعة وكلّ منهما في أوجها، ولم يشهد التاريخ ولن يشهد ما يشبه ذاك الذي حدث في صلب يسوع الذي من الجليل. وكلّما تلاقت عين أحدنا بعينَي يسوع على الصليب لا بدّ لنا وأن نتذكّر! آنذاك لن نسمح لأنفسنا بأن نهمس حتّى لأنفسنا أو نقول ليسوع: «إنّك تتطلّب منّي الكثير»، ولن نركع يومًا في ظلّ ذاك الصليب ونتجاسر على القول ليسوع: «كفى لقد تألّمتُ من أجلك بما فيه الكفاية».

وهل يخطر ببال أيّ منّا أن يقول له يومًا: «أعذرني، فمشاغلي متعدّدة ولا وقت عندي كي أنظر في طلباتك... أو أنّ كثرة الهموم في حياتي تحول دون الإصغاء إلى همومك والالتزام ولو ببعض منها»... ولا يساورني أيّ شكّ، في الوقت نفسه، في أنّ رحمته اللامتناهية لن تنفكّ تتوسّل إلى الآب في كلّ حال قائلة: «يا أبتِ اغفر لهم لأنّهم لا يعلمون ما يفعلون».

إنّ هذه الرحمة الفائقة وذلك الغفران الذي تلفّظت به شفاه لطّختها الدماء، وهي ترتجف ألمًا وترتعش من رهبة الموت، إنّما هما بلا شكّ من صنعٍ إلهيّ.

كلٌّ منّا مدعوّ إلى أن يخرج من ذاته، من خموله، وينبعث من تقوقعه ومن خوفه.

وعند الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم جمعة غدا منذ ذلك الزمن عظيمًا، بحّ ذلك الصوت الجبّار، بعد أن امتصّ صاحبه خلًا في إسفنجة أدنوها من فيه، وهو معلّق بين الأرض والسماء، وقال: «تمّ كلّ شيء، ثمّ حنى يسوع الجليليّ رأسه وأسلم الروح».

تلك كانت، في منطق الناس، نهاية حياة عظيمة خُتمت بالمسامير والمطرقة، ومعها نضب حتّى آخر قطرة، نبعٌ من الحنان والرحمة ما عرف العالم مثله قطّ. هكذا بدت الأمور في نظر الناس.

وفاخر الكهنة والفرّيسيّون بذاك الانتصار، وروما تنفّست الصعداء بعد أن قضي على ذاك الذي قال عن نفسه إنّه ملك اليهود... هكذا بدت الأمور في نظر الناس.

وإذ عمّت الظلمة منطقة اليهوديّة تلك الليلة، ساد في نفوس الناس شعور بأنّ حدثًا عظيمًا قد انتهى. وفي نفوس تلك البقيّة الباقية التي اتّبعته حتّى أيّامه الأخيرة عمّت الخيبة، وكأنّ حلمًا عظيمًا ملأ قلوبهم والدنيا إلى حين واندثر. وتلاقى الحزن والخوفُ ليدفعا بهم إلى داخل



غرفة صغيرة أوصدوها بإحكام من الداخل، إذ إنّ اليهود كانوا يريدون أن يطهّروا أرض اليهوديّة بكاملها من كلّ ما خلقه ذاك الناصريّ في القلوب. وأحسّ أتباع يسوع بأنّ نهايتهم غدت قريبة وأنّها لن تكون خيرًا من نهاية المعلّم. وربّما أنّه خطر ببالهم آنذاك قوله لهم يومًا بأنّه: «ما من تلميذ أفضل من معلّمه، ولا من عبد أفضل من سيّده».

كان في اليهوديّة ذاك المساء قوم يشعرون بأنّهم قد انتصروا وآخرون بأنّهم دحروا: يسوع الجليليّ قد مات ويبدو، في نظر الناس، أنّ كلّ شيء قد انتهى. ولكنّه لم يقل يومًا إنّه أتى ليحقّق إنجازًا بشريًّا، بل كان يردّد دومًا أنّ «مملكته ليست من هذا العالم». وكم من مرّة انسحب من بينهم ومضى حين أرادوا أن يغدقوا عليه التكريم الذي يسعى إليه البشر. حساباته كانت تختلف عن حساباتهم وأهدافه غير أهدافهم. لذا ما كان «نظر الناس» يومًا يشكّل قاعدة لحياته أو نهجًا لسلوكه.

بيد أنّه كان قد أنبأهم، قبل موته، بكلّ ما سوف يحدث وبأنّه، بعد أن تكون قواه البشريّة قد

انهارت تحت أعباء العذاب، وقضى الصليب على حياته، سوف يخترق جدار القبر بقوّته الإلهيّة فتنبعث فيه الحياة مجدّدًا. وكان قد ذكّرهم بقصّة يونان وكيف أنّه بقي في بطن الحوت ثلاثة أيّام ثمّ خرج، ليقول لهم إنّه هو أيضًا سيبقى في جوف الأرض ثلاثة أيّام، ثمّ ينبعث ثانيةً.

لقد تذكّروا ذلك، ولكن ما شهدوه على الجلجلة أنهك قواهم وزرع الخوف واليأس في نفوسهم، فشحّ في قلوبهم نور الرجاء حتّى كاد ينطفئ. ومع هذا كلّه قرّروا أن يتمسّكوا بذلك الخيط الرفيع من الأمل، ولا بدّ من أنّ ثقل الانتظار حوّل تلك الأيّام الثلاثة إلى زمن كاد لا ينتهي.

وقد كان الكهنة والفرّيسيّون أنفسهم في ارتباك لأنّه بلغهم أيضًا ما أنبأ به عن قيامته. «فذهبوا معًا إلى بيلاطس وقالوا له: «يا سيّد، تذكّرنا أنّ ذاك المضلّل قال إذ كان حيًّا: سأقوم بعد ثلاثة أيّام». فمرّ بأن يُحفظ القبر إلى اليوم الثالث، لئلّا يأتي تلاميذه فيسرقوه ويقولوا للشعب: قام من بين الأموات، فيكون التضليل الآخر أسوأ من الأوّل».



ما نسي التلاميذ تلك القوّة التي تجلّت في نائين وكفرناحوم وبيت عنيا، ولكنّ الذعر الذي لاحقهم في أثناء ذلك الأسبوع الطويل والمنهك كاد ينسيهم كلّ شيء. بيد أنّ الأيّام الثلاثة ستنقضي وسينجلي بعدها كلّ شيء. إنّ قدرة يسوع تبدو الآن وكأنّها على المحكّ، تمامًا كما بدت منذ زمن قصير في بيت عنيا. ويبدو أيضًا أنّ شعورًا كذاك الذي خالج توما خيّم على قلب العديد من أتباعه. قدرة يسوع على المحكّ وعليها يتعلّق كلّ شيء، حاضر البشريّة وماضيها والمستقبل. والقبر الفارغ سوف يكوّن الحقيقة الصارخة التي ستحيي الرجاء في تلك القلوب الكئيبة وتطرد منها كلّ خوف إلى غير رجعة.

وربّما أنّ القلب الأكثر انسحاقًا تحت وطأة خبرة الجلجلة كان قلب سيّدة اسمها مريم المجدليّة. ويبقى قلب تلك السيّدة، في أيّامه المظلمة كما في تلك التي أشرق عليه فيها نور المسيح، شاهدًا حيًّا على أنّ قلب الإنسان ما خُلق إلّا ليحبّ، وأنّه سيبقى في جوع إلى أن يحتضنه حبّ الله الذي وحده يُشبع تمامًا ويشفي.

وما دام القلب فارغًا من الله فهو يبقى عرضة

لأن يملأ نفسه من ذاته، وممّا ليس بجميل في ذاته، من الكبرياء والشهوة.

كانت مريم المجدليّة يومًا تعيش واقع الملايين من السيّدات اللواتي يجبن اليوم شوارع مدن العالم وأزقّتها، وفي قلب كلّ منهنّ جوع قد يكون إلى الخبز اليوميّ، أو إلى الحبّ، أو إلى سوى ذلك ممّا قد يملأ القلب الذي يبدو وكأنّه فرغ من الله.

ولكنّ تلك السيّدة كانت، في أعماق نفسها، تبحث عن ضالّة لها طالما تاقت إليها نفسها. وما إن وجدت كنزها حتّى احتضنته بكلّ ما أوتيت من قوّة حبّ فائقة، فأتى الغفران لها على قدر ذاك الحبّ وافرًا جدًّا. ذلك أنّ حبّ الله يبقى الأقوى مهما تفاقمت التعاسة في قلب الإنسان أو تعاظم ضعفه.

مريم المجدليّة تلك هي التي تحدّت الظلمة وداهمت الخوف وقت كان غالبيّة الذين تبعوا يسوع ما زالوا قابعين وراء أبواب موصدة والخوف يقضّ مضجعهم. ذهبت إلى القبر عند فجر اليوم الثالث يدفعها فقط حبّها الصادق وأمانتها لذاك الذي أعاد إليها الحياة. إنّه نفذ إلى



عمق حقيقتها وعرف كيف ينير ظلمتها بضياء حبّه وسعة غفرانه.

عندما وصلت إلى ذاك البستان حيث قبر يسوع، والفجر ينبلج، كادت لا تصدّق عينيها، إذ رأت الحجر الكبير الذي على باب القبر قد دحرج. فعادت لتوّها بسرعة إلى التلاميذ، وهم بعد نيامٌ، وقد امتزج الخوف الذي في نفسها بشيء من الحزن، فقالت لهم: «أخذوا الربّ من القبر، ولا نعلم أين وضعوه».

خفق آنذاك قلبا بطرس ويوحنّا، وفجأة تفجّر فيهما دفع جديد من الشجاعة، فأسرعا نحو القبر، فدخله بطرس أوّلًا «فأبصر اللفائف ممدودة، والمنديل الذي كان حول رأسه غير ممدود مع اللفائف، بل على شكل طوق خلافًا لها، وكان كلّ ذلك في مكانه. حينئذ دخل أيضًا التلميذ الآخر وقد وصل قبله إلى القبر فرأى وآمن...» (يو ٢٠/٦-٨).

كانت لهذين التلميذَيْن بيسوع علاقة خاصّة، فأحدهما تسلّم منه القيادة في الكنيسة، والآخر أطلق عليه الناس اسم «التلميذ الذي أحبّه يسوع»، ذاك الذي مال من دون تكلّف على

صدره أثناء العشاء الأخير، ليستفسر منه عمّا قاله في شأن خيانة أحدهم له. إخالهما وقفا بصمت بعد أن خرجا من القبر، وبرقت أعينهما فرحًا، فلم يعد في أحدهما حاجة إلى الكلام، لأنّه اتّضح لكلّ منهما آنذاك ما ورد في الكتاب عن أنّه سيتألّم ويموت ويقوم من القبر بعد ثلاثة أيّام.

وأمور أخرى عديدة قالها لهما وللآخرين أخذت تتّضح. فكم من مرّة أنبأ بموته وقيامته، وكم من مثل أعطاه إيّاهم أشار فيه إلى أنّه سيرذل ويقتل... ولكن يبدو أنّ قضيّة بهذا الحجم ما كان بإمكان أحد أن يفهمها دفعة واحدة. بيد أنّ تلك اللفائف والمنديل والقبر الفارغ، أخذت تلقي أضواء أكثر فأكثر إشعاعًا على تلك الحقيقة التي كوّنت بداية تاريخ لعهد جديد بين الله والإنسان.

ومع تغريد العصافير عند بزوغ ذاك الفجر، سرت في أجواء القدس ترنيمة جديدة تذكّر بأجواء إحدى ليالي بيت لحم لثلاث وثلاثين سنة خلت، عندما بشّر الملائكة العالم بفرح عظيم من شأنه أن يبدّد الخوف من قلب البشريّة إلى غير رجعة. وها هو خوف آخر يتبدّد من قلوب أحبّت

وكلّما تلاقت عيناي بعينَي يسوع على الصليب لا بدّ لي وأن أتذكّر... ولن أسمح لنفسي بأن أقول له بعد اليوم: «إنّك تتطلّب منّي الكثير».

المسيح وتبعته في القدس وفي الجليل، والترنيمة الجديدة تبشّر بولادة جديدة: «لقد قام المسيحُ من الموت». وراح يظهر لمحبّيه وتلاميذه، فمريم المجدليّة التي سبقت الجميع إلى القبر، وكانت هناك تبكي لأنّها ظنّت أنّ أحدًا «أخذ المعلّم وأخفاه»، دارت بينه وبينها محادثة حول ذاك الأمر، وكانت تظنّ أنّها تتحدّث إلى البستانيّ، إلى أن ناداها المعلّم باسمها فعرفته آنذاك، وارتمت مرّة أخرى على قدميه تبلّلهما، ولكن بدموع الفرح هذه المرّة... فأرسلها لتكون أولى المبشّرات بالفرح الجديد، كما كان أوكل من قبلُ، إلى رعاة بسطاء، رسالة التبشير بفرح أوّل عظيم، وقت ولادته في بيت لحم.

وبعد اثنتي عشرة ساعة «في مساء ذلك اليوم، يوم الأحد»، أتى إلى التلاميذ وكانوا بعد في خوف قابعين «في دار أغلقت أبوابها خوفًا من اليهود»، وكأنّ بطرس ويوحنّا ما استفاقا بعد من صدمة رؤيتهما اللفائف... والمنديل... والقبر الفارغ... فوقف بينهم وقال لهم: «السلام عليكم». ولأنّه أحسّ بأنّ صدمة أخرى أمست ضرورة ليستفيقوا من صدمة الجلجلة «أراهم يديه



وجنبه...» فانقلب حزنهم فرحًا عظيمًا... وبعد أن نفخ فيهم الروح القدس، «روح المحبّة والفرح والسلام والصبر واللطف وكرم الأخلاق والإيمان والوداعة والعفاف»، أرسلهم، كما أرسله الآب، وكما أرسل هو المجدليّة من قبلهم، ليحملوا إلى الدنيا النبأ الجديد السارّ: إنّ ذاك الذي بشّر به الملائكة «فرحًا عظيمًا للشعب كلّه» حين ولادته، يُبشّر به الآن، بعد أن قضى ثلاثًا وثلاثين سنة يتجوّل في كلّ أنحاء فلسطين يبشّر ويشفي، وبعد أن مات وقام منتصرًا على الموت، يُبشّر به ملك سلام ومنبع رجاء جديد لذلك الشعب نفسه، الذي استقبله في أرضه حين وُلد، بل لشعوب الأرض قاطبة، في ماضي التاريخ وحاضره والمستقبل.

وما من شكّ في أنّه كان لمريم الأمّ حضورها المميّز في هذه الأثناء، ولكنّها مكثت في الظلّ لأنّ ابنها أصبح للعالم بأسره قبل أن يكون لها. ولا بدّ أنّها تذكّرت «أنّ أمّه وأخوته هم أيضًا كلّ أولئك الذين سمعوا كلمته ويعملون بها...»، ومن بينهم تلك المجدليّة التي غفر لها الكثير لأنّها أحبّت كثيرًا، والتي خلّد ذاك الحبّ ذكراها إلى منتهى الدهر.

مباركةٌ أنتِ أيّتها الأمّ التي أعطت البشريّة ابن الله المتجسّد وحملت معه الصليب. وبعد أن أعطت كلّ شيء من ذاتها توارت في الظلّ، لأنّ عطاءها قد اكتمل... مبارك امّحاؤك الذي أشعّ نورًا في تواضع الأمّة التي حسبت نفسها «أمّة بطّالة»، لأنّها أعطت فقط ما كان عليها أن تعطي...

وأنتِ أيّتها المجدليّة التي غدوتِ بركة لنفسك آنذاك ولنا اليوم، فلقاؤك الشهير المعلّمَ، في فجر ذلك اليوم الذي أعاد إليك الفرح، ما زال يبعث في قلوبنا اليوم، وكلّ يوم، فرحًا جديدًا، وثقة بأنّ إيماننا ثابت، وقد تأسّس على صخرة يسوع القائم من الموت، ابن الله، الذي لم يكن إيمانك به ولا إيماننا باطلًا.

وفي قيامة يسوع من الموت وعدٌ بأنّك أنتِ وأنا سنقوم معه يومًا. وقد وعد أيضًا بأنّ يومًا سيأتي يعود فيه «على سحب السماء»، بعد أن يرسل أمام وجهه الملائكة، تمامًا كما أرسلهم أمامه يومًا إلى سماء بيت لحم، ولكنّ هذه المرّة «ليجمعوا من أربعة أقطار الأرض كلّ مختاريه والذين أحبّهم أيضًا».



«إنّ المسيح قام من بين الأموات وهو بكر الذين ماتوا... وكما يموت جميع الناس في آدم، فكذلك سيحيون جميعًا في المسيح... ثمّ يكون المنتهى...».

الحقيقة أنّ مريم المجدليّة لم تكن لوحدها عند باب القبر تنتظر وتبكي. فالبشريّة بأسرها كانت هناك «تنتظر التبنّي، أي افتداء أجسادها»، بل الخليقة جمعاء كانت تئنّ، وما زالت في انتظار خلاصها... والفرح الذي أشعّ في عينيها وفي قلبها حين التقته حيًّا ثانيةً، هو هو الذي ما انفكّ يبعث في قلوبنا الرجاء. ونحن على يقين من أنّ توقنا إليه، والتزامنا بخدمته وخدمة إخوتنا، وكلّ ذلك فيض من حبّه إيّانا، سوف يؤولان بنا إلى تجلّي الرؤية نفسها مكتملة. «فنحن اليوم نرى في مرآة رؤية ملتبسة، وأمّا في ذلك اليوم فتكون رؤيتنا وجهًا لوجه؛ اليوم أعرف معرفة ناقصة، وأمّا في ذلك اليوم فسأعرف مثلما أنا معروف» (١ قور ١٢/ ١٤). نحن نؤمن اليوم، ولكنّنا سنعرف بكلّ وضوح آنذاك، أنّ المسيح حقًّا قام من الموت.

أن أحبّ فذلك يعني أن أتحدّى الظلمة والخوف وأنطلق نحو الآخر، فينير الحبّ ظلمتي ويتبدّد الخوف منّي.



الفصل الرابع

# ملكوت وكنيسة

إنّ كلًّا منّا مدعوّ إلى أن يعود إلى طريقة عيش يسوع محاولًا أن يعتنقها بقوّة في التأمّل والصلاة. لم يتكلّم يسوع في تعليمه على مؤسّسة بشريّة، بل تكلّم مرارًا وتكرارًا على ملكوت الله، وكأنّه ما شاء أن يقيّد عمله الفدائيّ، منذ البداية، في ما يشبه «التوراة والهيكل»، وكأنّ في قصده أن يستبدلها أو ينقضها. ولو أنّه فعل لقتله اليهود في بدء رسالته.

أتى مخلّصًا إيّاهم والبشريّة جمعاء، وكان هو الذي بشّر به الأنبياء. بيد أنّ طول الزمن وانحراف الناس نحو ما يرضي تطلّعاتهم البشريّة، جعلهم لا ينتظرون مخلّصًا بحسب تعاليم الأنبياء وحسب، بل زعيمًا سياسيًّا أو قائدًا عسكريًّا يرفع

عن كاهلهم نير الاحتلال، ويحمل إليهم التقدّم والازدهار.

فالتطويبات التي أطلقها يسوع من على الجبل في الجليل، والتي فيها نادى بالفقر والوداعة والرحمة، وأشاد بأولئك الذين يتقبّلون الآلام والاضطهادات على أنواعها، إنّما هي بعيدة كلّ البعد عن حقيقة المخلّص الذي كانوا يريدون.

وبعيدًا كذلك عن أذهانهم قوله إنّ الدخول في الملكوت، شأنه شأن الانتماء إلى الكنيسة، يحتّم على المرء أن يعيش في حال من الطهر والبساطة والثقة بالله، والتوكّل على محبّته اللامتناهية، والصفاء في محبّة الناس، ممّا يجعل في قلبه سلامًا يُشعره بأنّه يعيش في سماء، وهو ما زال في عداد سكّان هذه الأرض. وأقرب مَن جسّد تلك الحال في ذهنه أطفال كان لهم في قلبه مقامٌ خاصّ. ونحن نذكر أنّه، عندما أزعج ضجيجُ الأطفال التلاميذ يومًا، وظنّوا خطأً أنّ ذلك يزعج المعلّم أيضًا، قال لهم: «دعوا الأطفال يأتون إليّ ولا تمنعوهم، لأنّ لمثل هؤلاء ملكوت السموات». ولكي يزيد في توضيح



الأمر، قال لهم أيضًا: «إن لم تعودوا كالأطفال، لن تدخلوا ملكوت الله».

ولكنّ يسوع المخلّص ما أتى ليعمل إرادة الناس ولا ليرضي نزواتهم، بل لتتميم إرادة أبيه الذي في السماء. لذا سار في نهجه، حتّى النهاية، مهيّئًا شيئًا فشيئًا، جماعة آمنت بمبادئه، تلك المبادئ التي ستتحوّل، مع الزمن، وبتوجيه من الروح، صخورًا صلبة تكوّن الأساس المتين لكنيسته. وكان يدرك آنذاك أنّ كنيسته سوف تمرّ، كما المؤسّسات جميعها، بالكثير من التجارب الصعبة، وتتحمّل الاضطهادات والآلام، وتكويها نيران الانقسامات، وتتجاذبها الاعتبارات البشريّة، ويشوّه نقاءها أحيانًا ما كان يخشاه عندما دعا تلاميذه إليه وقال لهم: «تعلمون أنّ رؤساء الأمم يسودونها، وأنّ أكابرها يتسلّطون عليها. فلا يكن هذا فيكم، بل مَن أراد أن يكون كبيرًا فيكم، فليكن لكم خادمًا. ومَن أراد أن يكون الأوّل فيكم، فليكن لكم عبدًا. هكذا ابن الإنسان لم يأتِ ليُخدم، بل ليَخدم ويفدي بنفسه جماعة الناس» (متّى ٢٠/٢٤-٢٨).

ولكن، إلى جانب ذلك كلّه، كان يدرك أيضًا أنّ أعدادًا وافرة من أبناء كنيسته سيتميّزون بروح الخدمة تلك وسيبذلون حياتهم، كما فعل هو، ليشهدوا أمام الناس للنهج الذي عليه أسَّس الكنيسة، ويسيروا في الطريق التي اختطَّها لتلاميذه وأوضحها لهم بقوله: «مَن أراد أن يتبعني، فليزهد في نفسه ويحمل صليبه ويتبعني، لأنّ الذي يريد أن يخلّص حياته يفقدها، وأمّا الذي يفقد حياته في سبيلي فإنّه يجدها». (متّى ١٦/ ٢٤-٢٥).

ففي كنف القدّيسين والشهداء، وتحت أعباء ضعف الكنيسة وما يجرّ ذلك الضعف من شرور وويلات، تتابع الكنيسة مسيرتها بثقة، سائرة على خطى المعلّم في إكمال عمل الخلاص، لأنّه هو الذي يسير فيها ومعها، بحسب الوعد الذي قطعه لتلاميذه عندما أرسلهم ليتلمذوا ويعمّدوا قائلًا لهم: «هاأنذا معكم طوال الأيّام إلى نهاية العالم». (متّى ٢٨/ ٢٠).

لقد كتب إرنست رينان Ernest Renan وهو طالما اشتهر بشكّه في أمور الدين، قائلًا: «يبدو يسوع المسيح اليوم، وبعد أن انقضى على مروره



في هذه الدنيا مئات السنين، أنّ حبّه للعالم أصبح ألف مرّة أكثر وضوحًا عمّا كان في أثناء حياته على الأرض. لذلك فإنّ حبّ العالم له قد زاد آلاف الأضعاف منذ تلك الفترة. وقد غدا حقًّا حجر الزاوية للبشريّة بأسرها، حتّى لو أنّه حدث أن زال ذكره في الدنيا، وزال معه كلّ ما ارتبط في شخصه، لتزعزع الكون بأسره حتّى عمق أعماق أساساته». وهذا بالطبع أمر لا يمكن لمخيّلة أن تتصوّر حدوثه. فكفرناحوم باقية إلى ما لا نهاية وكذلك أيضًا نائين وبيت عنيا والقبر الفارغ واللفائف التي غدت علامة الانتصار على الموت إلى الأبد.

وسيكون هنالك دومًا مريض ينال الشفاء، وأعمى يعود إليه بصره، وإنسان أثقل كاهله الشعور بالذنب يحسّ بالغفران وينطلق في الحياة مجدَّدًا. وكلّ ذلك من خلال لمسة يد محبّة ونظرة تفيض حنانًا من ذلك القلب الذي أُفعم حبًّا لا يعرف أيّة حدود.

وهذه كلّها أشعّة ما زالت تتدفّق في ربوع عالمنا منبثقة من تلك المنارة التي عمرها من عمر تاريخ البشر، والتي اكتمل الإشعاع فيها منذ ألفَي

سنة في يسوع المسيح المخلّص. وعندما «تُظلم الشمس، والقمر لا يُرسل ضوءه، وتتساقط النجوم من السماء...» (مر ١٣/ ٢٤)، ويؤخذ الناس على حين غفلة، عندما يحدث ذلك في يوم لا يعرفه أحد ولا الابن إلّا الآب، سيكون إشعاع ذلك النور أسطع من الشمس والقمر والنجوم مجتمعة.

فآخر إنسان في آخر يوم من عمر الكون سينعم بدفء ذلك النور الذي «أشرقَ (يومًا) في الظلمات، والظلمات لم تدركه» (لو ١/ ٥)، ولكن شرط أن يفتح ذلك الشخص قلبه للنور «ولا يفضّل الظلام عليه». آنذاك يستنير سبيله. «أنا نور العالم مَن يتبعني لا يمش في الظلام، بل يكون له نور الحياة» (يو ٨/ ١٢).

سيأتي يوم يجد فيه كلّ منّا نفسه سالكًا تلك الطريق التي لا بدّ وأن يمرّ فيها كلّ إنسان. وآنذاك سيظهر ذاك «النور» على حقيقته، وهو جالس على عرش مجده، سيّدًا يرحّب بالخراف الذين عن يمينه، ذلك لأنّهم عرفوا كيف يرحّبوا هم بالجائع والعطشان والغريب، وقد اتّسع وقتهم وقلبهم للمريض وللمسجون ولكلّ مهمّش.



وهم فعلوا ذلك من دون أن يدركوا أنّ في المريض والغريب والمهمّش والمسجون يكمن ذاك الوجه المنير الذي يحسّ أنّك كلّما صنعت شيئًا لواحد من هؤلاء فله هو صنعتَ ذلك، إذ إنّ كلًّا منهم يحمل في عمق نفسه صورة لوجه الله، بل يحمل الله ذاته...

تعال الآن نعود معًا إلى كفرناحوم ونائين وبيت عنيا، حيث التقينا النور، بل مصدر كلّ نور وحياة. إنّ مَن جزم في نفسه أن يتقرّب من يسوع المسيح، ليتعرّف إليه عن كثب، إنّما يضع نفسه أمام تحدٍّ عظيم. والمهمّة التي انتقاها لنفسه لن تكون يومًا سهلة. ذلك أنّ يسوع المسيح ما وعد محبّيه يومًا إلّا بصليب، عليهم أن يحملوه، وهو، على مثال صليبه، لن يكون خفيفًا. بيد أنّه، كما وجد هو مَن يساعده في حمل صليبه، سيرسل دومًا إلينا مَن يمدّ يد العون في ساعات الشدّة.

والتعرّف إلى المسيح يتطلّب، أوّل ما يتطلّب، أن أكرّس له ما يكفي من الوقت، فأقرأ الكتاب وأصغي، في التأمّل والصلاة، إلى ما يقوله لي الروح عن المسيح وعن ذاتي، وعن المعنى الذي يمكنني أن أعطيه حياتي.

الوقت الذي أمضيه في التأمّل والصلاة هو ما يجعلني أختبر قوّة الروح فيَّ، وعمل الله في حياتي، وقتٌ لأقرأ وأصغي وأحبّ، فأحيا وأجد في الله راحةً لنفسي.

كم هو مهمّ أن أعود بقلبي التعب إلى حضن المسيح، وأجلس معه على الجبل وهو يُكثّر الخبز والسمك، لتكون لي قوّة فيه كما للجموع، وأن أقف وإيّاه على بئر يعقوب وأصغي إليه يحدّثني والسامريّة عن «الماء الحيّ». وكم هو حسنٌ أن أشارك لعازر ومرتا ومريم في فرحة الانبعاث والانطلاقة في الحياة مجدَّدًا.

وفوق كلّ شيء، عليّ أن أقف على أقدام الصليب، تلك الخشبة التي تمّ فداء الكون عليها، وأن أنتظر في البستان مع المجدليّة فجر القيامة. وأنت تقرأ هذه الصفحات، ها إنّ عقارب الساعة التي في معصمك، أو تلك المعلّقة على الحائط في بيتك، تتقدّم بانتظام، ثانية تلو الأخرى... وعلى بابك يقف غريبٌ ويقرع، إنّه يحاول أن يدخل... وهو يدرك الآن أنّك تصغي.

إذا كان من المهمّ أن أتعرّف إلى المسيح من خلال ما كتبت عنه الأناجيل، وما قاله فيه الآباء



والكنيسة، فمن المهمّ أيضًا أن ألتقيه اليوم حيث أعيش وحيث أعمل. فملكوت الله جزء لا يتجزّأ في حياتي وعملي، بل هو «في داخلي». الملكوت يُبنى ويرتفع بقدر ما يعرف المرء كيف يعيش في شراكة حبّ فاعل مع المسيح ومع إخوته. وإنّ هذا لكنز ليس كالكنوز التي يجمعها الناس، والتي هي إلى فناء، وقد تُسرق منّا في أيّة لحظة. فالملكوت أشبه بكنز يتطلّب الاهتمام به جهدًا مكلفًا. فمَن وجده لا بدّ وأن يضحّي بكلّ شيء كي يحافظ عليه وينمّيه، لأنّه أثمن من كلّ شيء.

«لا تكنزوا لأنفسكم كنوزًا في الأرض، حيث يفسد السوس والعثّ، وينقّب السارقون فيسرقون، بل اكنزوا لأنفسكم كنوزًا في السماء، حيث لا يفسد السوس والعثّ، ولا ينقّب السارقون فيسرقوا. فحيث يكون كنزك هناك يكون قلبك». (متّى ٦/١٩-٢١).

ها هو الملكوت فيما بيننا يدعونا إلى أن نحبّ ما هو أبعد، ونجهد في سبيل ما هو «أبقى» وأثمن. إنّه نعمة من الله وحياة. لقد كان دائمًا وما زال يحتضن في طيّاته سرّ الحياة والموت، إذ

إنّ فيه تأخذ الحياة، كما الموت، معناهما.

إنّ الملكوت حيّ في كلّ مدينة وفي كلّ قرية بل وفي كلّ بيت ينبض الحبّ في قلوب ساكنيه. وهو قائم أيضًا في قلب مَن لا بيت له ولا مأوى، إنّه النور الذي يخترق حياة الناس حتّى في أعمق أعماق بؤسها.

والملكوت يتخطّى الزمان والمكان، فحيث إنسان يحتضن المسيح في قلبه، وحيث بشر يسيرون على نهجه، وأناس يرقصون على أنغام موسيقاه، فهناك الملكوت.

لقد واجه يسوع الكثير من المصاعب والمضايقات وعدم الإيمان، حتّى من أقرب المقرّبين إليه أحيانًا. ولكنّه، بكلّ ثبات وطول أناة، راح يعلّم ويشفي. وهكذا كان يبني كلّ يوم، حجرًا فوق حجر، إلى أن غدا واضحًا أنّه أتى يؤسّس نهجًا جديدًا، طريقة عيش جديدة، وهو يعبّد طريقًا جديدة للخلاص. إنّه أتى ليتمّم بناء الملكوت.

في البدء كان تصميم البناء أشبه بمخطّط يفتقر إلى الوضوح. فاليهود رأوا أن التوراة هي



كلّ شيء، وأتى الكتبة والفرّيسيّون ففرضوا العمل بها بروح من الكبرياء جعلتهم يتمسّكون بالحرف ويهملون في الغالب ما في الجوهر. فأتى كلام يسوع إليهم غاية في القسوة، ناعتًا إيّاهم «بالقبور المكلّسة» و«بالحيّات أولاد الأفاعي..». وما كان بإمكانهم أن يتصوّروا أنّ ابن نجّار من الناصرة يمكن أن يكون المخلّص. لقد حسموا الأمر وأصدروا عليه وعلى كلّ من أبناء بلدته حكمًا مسبقًا يقضي بألّا «يخرج من الناصرة شيء صالح». لقد كانت قلوبهم من طينة غير التي جبل منها قلب تلك السامريّة التي كانوا بلا شكّ يحتقرونها، ولو أنّها من بنات قومهم لرجموها أقلّه خمس مرّات.

كانوا يحلمون بمخلّص يليق بكبريائهم ويلبّي طموحاتهم، مخلّصٍ سيفه ماضٍ، ورمحه ثاقب، وهو يحسن قيادة الجيوش الجرّارة التي ستعيد الحكم إلى إسرائيل. ونسوا ما قاله فيه أشعيا على أنّه سيكون ملك سلام لا ملك حرب، وفي عهده «سيربض الذئب مع الحمل...» (أشعيا ١٢).

ما كان بإمكانهم أن يقبلوا مسيحًا فقيرًا،

«إن لم تعودوا كالأطفال فلن تدخلوا ملكوت السموات».



أتى «ليَخدم لا ليُخدم»، «يأكل مع العشّارين والخطأة»، يوصي مَن يصغون إليه بأن «أحبّوا أعداءكم، وأحسنوا إلى مبغضيكم، وباركوا لاعِنيكم، وصلّوا من أجل المفترين الكذب عليكم. مَن ضربك على خدّك فاعرض له الآخر...» (لو ٦/ ٢٧-٢٩).

ويسوع ما بدأ عمله بخلق مؤسّسة ذات تنظيم محكم، لها أركانها وفروعها وأنظمتها، بل بدأ عمله مع حفنة من الرجال، ليسوا من كبار هذا العالم ولا هم، في نظر الناس، من طبقة مميّزة. وقال بولس فيهم إنّ الله اختار الجهّال والضعفاء ومَن شابههم، لكي يدرك الجميع أنّ بناء الملكوت إنّما هو عمل الله قبل أن يكون نتيجة لجهد بشر، وهو يبدأ متواضعًا ويكبر. هذا يذكّرنا به في مثل حبّة الخردل حيث قال: «مَثَل ملكوت السموات كمَثَل حبّة خردل، أخذها رجل فزرعها في حقله، وهي أصغر البذور كلّها، فإذا نمت كانت أكبر البقول، بل صارت شجرة حتّى إنّ طيور السماء تأتي فتعشعش في أغصانها».

لقد نما الملكوت شيئًا فشيئًا وكان العاملون في بنائه أشبه بالخمير في العجين، والكنز المخبّأ

في حقل. وكأنّ يسوع أراد أن يسير في عمله بتواضع وبشيء من الصمت، لأنّ أهمّ ما في الأمر التطوّر الداخليّ عند الذين التزموا به، بعيدًا عن المظاهر والشكليّات، معلنًا أنّه «يريد رحمةً لا ذبيحة، وأنّ السبت خُلِق للإنسان لا الإنسان للسبت...».

وهكذا ببطء، ولكن بعمق، كان الملكوت يُبنى وتمتدّ أشعّته، فتنتشر أحيانًا وتنحسر أحيانًا أخرى، حتّى إنّه، عندما صُلب يسوع بدا لبعضهم وكأنّه لا يتعدّى كونه شيعة من الشيع التي سوف تموت بموت صاحبها.

والواقع أنّ الأمور سوف تتبدّل تمامًا ولكن في اتّجاه آخر. ذلك أنّ الجلجلة، بدل أن تكون النهاية، غدت مدخلَ عهد جديد شفى جرح آدم الأوّل، وشرّع أمام البشريّة أبواب السماء مجدَّدًا.

ولكي يكتمل عمل الخلاص بين الناس، كان من الضروريّ أن يستمرّ حضور المسيح القائم من الموت في إطار يمكّن أولئك الذين تتلمذوا على يده، وشهدوا على حقيقة قيامته، من أن يتابعوا العمل باسمه. لقد شاء أن يستمرّ



حضوره معهم من خلال ما أعطاهم في الليلة التي أسلم فيها، وقد أعطاهم ذاته ليكون لهم خبز حياة، يبقى معهم «حتّى انتهاء العالم». ذلك لأنّه أرادهم، وكلّ مَن سيؤمنون على أيديهم، أن يعلنوا باسمه «التوبة وغفران الخطايا لجميع الأمم، ابتداء من أورشليم»، كما أرادهم أن يكونوا «شهودًا على تلك الأمور...». ولكي يقووا على إكمال المسيرة قال لهم: «إنّي أرسل إليكم ما وعد به أبي. فامكثوا أنتم في المدينة إلى أن تلبسوا قوّة من العلى». وهكذا فعلوا وحلّ الروح القدس عليهم، إذ «كانوا كلّهم مجتمعين في مكان واحد، فانطلق من السماء بغتة دويّ كريح عاصفة، فملأ جوانب البيت الذي كانوا فيه، وظهرت لهم ألسنةٌ كأنّها من نار قد انقسمت، فوقف على كلّ منهم لسان، فامتلأوا جميعًا من الروح القدس وأخذوا يتكلّمون بلغات غير لغتهم، على ما وهب لهم الروح القدس أن يتكلّموا». وإذا كان لنا أن نبحث عن حدث نحسبه انطلاقة للكنيسة بشكل واضح، فحلول الروح القدس يكون هو الحدث.

عندما تبدأ المؤسّسة تظهر إلى العيان في

جماعة بشريّة، يصبح من الضروريّ أن يُقام تنظيم لتلك الجماعة. ولا بدّ أنّ التلاميذ وبطرس، وهم في العنصرة، تذكّروا المشهد التالي الذي حدث في نواحي قيصريّة فيلبّس حيث «سأل يسوع تلاميذه: مَن ابن الإنسان في قول الناس؟...»، وبعد أن أجابوا طرح عليهم السؤال بشكل شخصيّ قائلًا: «مَن أنا في قولكم أنتم؟»، فأجاب سمعان بطرس: «أنت المسيح ابن الله الحيّ».

وبعد شهادة بطرس هذه بلاهوت يسوع، وذلك بوحي من لدن الآب السماويّ، قال له يسوع بكلّ وضوح ما لم يقله لسواه من التلاميذ: «أنا أقول لك: أنت صخرٌ وعلى الصخر هذا سأبني كنيستي، فلن يقوى عليها سلطان الموت. وسأعطيك مفاتيح ملكوت السموات. فما ربطته في الأرض رُبط في السموات. وما حللته في الأرض حلّ في السموات». (متّى ١٦/١٦-١٩).

الصخر يرمز إلى الصلابة والثبات، وهذا أصبح لقب بطرس منذ ذلك الحين.

والكنيسة تشير إلى الجماعة الجديدة التي



أسَّسها يسوع وجعل بطرس رمز الثبات فيها وعهد إليه بدور رفيع في السهر على انطلاقتها. ومن ضمن هذا الدور قبول الناس في الجماعة أو عدم قبولهم، وتفسير كلام يسوع على حقيقته. وهذه السلطة لم يحصرها ببطرس، بل أعطاها أيضًا سائر التلاميذ معه ولو كانت له الأوّليّة عليهم (أنظر متّى ١٨/١٨، ويو ٢٠/٢٣).

فها هي الجماعة تبدأ بالظهور وكأنّ لها بداية بنية تنظيميّة مرتكزة على بطرس والأحدَ عشر. لذا نراهم، بعد حلول الروح القدس مباشرة، يقفون معًا، ونرى بطرس يتكلّم باسمهم بوضوح، وكمَن له سلطان: «فوقف بطرس مع الأحد عشر، فرفع صوته وكلّم الناس قائلًا: يا رجال اليهوديّة، وأنتم أيّها المقيمون في أورشليم جميعًا، اعلموا هذا، وأصغوا...». وراح يذكّرهم بما تنبّأ به النبيّ يوئيل عمّا يتحقّق الآن... ثمّ انتقل إلى الكلام على «بني إسرائيل» جميعًا فذكّرهم أيضًا بموت يسوع وقيامته، موضحًا لهم أنّ ما حدث كان قد تنبّأ به النبيّ داود من قبل أيضًا.

هذا الحدث سيحيا إلى ما لا نهاية في

الكنيسة. ومشاركة الإنسان لله في حياته، هي التي تحيي الإنسان المؤمن من خلال الكنيسة. ومن خلال الكنيسة أيضًا سيحصل الإنسان على الغفران حين يفشل في العمل مع الله لبناء ملكوته. فعطاءات الله الإنسانَ لا تقدّر، بل هي توصف «بالحياة الوافرة»، بيد أنّه على الإنسان أن يقبل على ذلك النبع ليستقي منه القدرة وملء الحياة، والغفران أيضًا.

الحياة تفيض من قلب الله ولكنّ الإنسان لا يتلقّاها من فراغ، من الهواء الذي يحيط به، ولا من أمور نتصوّر وجودها في مخيّلتنا، بل هو يستقيها من خلال أقنية محدّدة تمرّ كلّها في يسوع المسيح الذي هو صورة الله وقدرة الله.

وهو ما تحاول الكنيسة أن تجسّده في واقعها وفي سلوكها، جاهدة في أن تدعه يملكها كجماعة من دون أن تملكه هي وتستأثر به.

الله يتعامل معنا، بل يعمل فينا، من خلال واقعنا كبشر. وسرّ نفسيّتي كإنسان ليس بسرّ عليه. فحقيقة المسيح، كما حاجات البشر، بل حياتهم بأكملها، هي من العوامل التي يمكن أن تبيّن لنا هدف يسوع من تأسيس كنيسته ليحقّق من



خلالها ملكوت أبيه في العالم.

يسوع، ذاك الغريب الذي يقرع بابك وبابي وكلّ باب في الدنيا، أتى ليعايش مَن يقرّر أن يفتح له بابه، ويوضح له حقيقة حضور الله في حياته، ذلك الحضور الذي تجسّد في حدث الخلاص، من ولادة المسيح إلى قيامته، والذي سوف يتجسّد في حياة كلّ مَن يصغي إليه ويقبله فاديًا ومخلّصًا.

هذا الحضور نفسه، تحاول الكنيسة أن تجسّده بدورها. ويسوع شاء أن يتماهى معها بعد أن أوحى إليها حقيقته في تعاليمه. وهو يجدّد حضوره فيها من خلال لقاءاته المتكرّرة في علامات حسّيّة ترافقنا في مراحل حياتنا كافّة، وتسمّيها الكنيسة «أسرارًا».

وتعاليم يسوع تلك التي أعطاها تلاميذَه أرادها أن تنتشر من خلالهم في العالم كلّه. فبعدما قام من الموت وراح يتراءى لهم الواحد تلوَ الآخر، أفرادًا وجماعات، قال لهم: «إذهبوا في العالم كلّه، وأعلنوا البشارة إلى الخلق أجمعين...». وأعطاهم أيضًا، مع كلمته، مواهب الشفاء. فهو أرادهم أن يسلكوا، كما

سلك هو في حياته، محقّقًا رسالته المزدوجة، رسالة التعليم ورسالة الشفاء، فهو من أجل ذلك أتى إلى العالم متجسّدًا. (أنظر **لوقا ٤/١٨-١٩**).

لذا كان من الطبيعيّ، لمّا راحت الكنيسة تنتشر في أماكن بعيدة، أن يبدأ العارفون بتلك الأمور بكتابة ولو بعض منها، بوحي من الروح القدس.

وهكذا تكوّن، بعد عشرات السنين على موته، ما نسمّيه اليوم بالأناجيل الأربعة التي هي لمتّى، ومرقس، ولوقا، ويوحنّا.

ولكن هذه الكتب هي، منذ ذلك الحين، في عهدة الكنيسة التي هي أمّ ومعلّمة. فهي تشرحها وتوضح ما قد يصعب فهمه فيها. فالكنيسة هي التي تسلّمت من يسوع رسالة التعليم ولم تتسلّم منه أيّة نصوص مكتوبة. لقد شاء أن تكون الكنيسة امتدادًا لشخصه ولرسالته. وهكذا يمكننا أن نفهم السؤال الذي وجّهه إلى شاول عندما التقاه وهو في طريقه إلى دمشق قاصدًا اعتقال أتباع يسوع وسوقهم إلى أورشليم: «شاول شاول، لماذا تضطهدني؟».

**«إنَّ مشاركة الإنسانِ اللّهَ في حياته هي التي تحيي الإنسان المؤمن من خلال الكنيسة».**

ولأنّ يسوع أراد الكنيسة امتدادًا لشخصه ولرسالته، بل جسده السرّيّ، تؤمن الكنيسةُ بأنّ الروح يعضد ضعفها دومًا وينير طريقها لأنّها منذ البداية سمعت صوت المعلّم وما زالت تسير على هديه: «كما أرسلني الآب... هكذا أنا أرسلكم».

أرسلهم، ولكنّه كان يدرك أنّه قد «اختار مَن هم ضعفاء ليخزي الأقوياء». إثنا عشر رجلًا دعاهم وأرسلهم ليحملوا الرسالة إلى العالم كلّه، ووعدهم بأن يكون دومًا إلى جانبهم في عملهم.

ولكن، لا ننسَ أنّ هؤلاء كانوا بشرًا متسربلين بالضعف ككلّ البشر، ولكنّ قوّتهم هي في الذي أرسلهم والذي يعيش معهم وفيهم.

وإذا كان المسيح حيًّا في كنيسته اليوم وهو الله، إذًا يمكن الكنيسة أن تدّعي بأنّ الله ليس في أساسها وحسب، بل هو أيضًا في تاريخها، في كلّ مسيرتها التاريخيّة. الكنيسة لا تبعد عن المسيح مسافة ألفَي سنة، لأنّه ما فارقها يومًا، لأنّها هي تجسيد له، وهي تفقد هويّتها إذا ما غُيّب المسيح عنها.



لذلك يقال عن الكنيسة إنّها مقدّسة وإنّ نموّها لا يخضع لقوانين بشريّة... والمسيح الحيّ في كنيسته يجترح العجائب كلّ يوم في نفوس الناس، معزّيًا بعضهم ومشجّعًا بعضهم الآخر، ومضرمًا الحبّ في قلوب آخرين، الذين يقولون مع بولس: «إنّ حبّ الله هو الذي يدفع بي إلى الأمام».

المسيح في كنيسته يريح مَن يأتون إليه بتعبهم وثقل أحمالهم، والمسيح في كنيسته أيضًا يشجّع الذين يعيشون في الخوف ويلقون الاضطهاد فقط لأنّهم من أتباعه.

المسيح في كنيسته يحيا في قلوب الآلاف من المكرّسين الذين يعيشون معه في فرح عارم، وقد كرّسوا ذواتهم ليكونوا إلى جانب الفقير والمريض والمعذّب والمهمّش.

المسيح في كنيسته يعيش في كلّ من العائلات التي تعرف كيف تضحّي لتكون في وحدة معه، وأعضاؤها على اتّحاد فيما بينهم. وفي كلّ هؤلاء يستمرّ المسيح حيًّا، وحياته فيهم هي شهادة للعالم على أنّه «الطريق والحقّ والحياة».

وما هذا كلّه إلّا استجابة لصلاة يسوع من أجل «أن يأتي الملكوت، ويتقدّس اسم الآب، وتتمّ في الأرض مشيئته...».

ومع هذا كلّه، فالكنيسة ما ادّعت يومًا بأنّها كاملة في حياتها وفي تعليمها وفي شهادتها. إنّها مقدّسة لأنّ المسيح هو أساسها وهو حياتها، ولكنّ البشر الذين منهم تتألّف هم باقون في ضعفهم وفي أنانيّتهم وفي صراعهم على المناصب أحيانًا، تمامًا كما كانت الحال مع ابنَي زبدى والآخرين. ويبقى أنّ انقساماتهم هي أكبر جرح ينزف عبر تاريخ الكنيسة، وهو يكوّن عثرة كبيرة لغير المؤمنين. ولا شكّ في أنّ هذه الحال هي التي دفعت بيسوع إلى صلاة توجّه فيها إلى أبيه في أواخر ساعات حياته، إذ قال: «أنا ذاهب إليك يا أبتِ القدّوس، أحفظهم باسمك الذي وهبته لي، ليكونوا واحدًا كما نحن واحد... لا أدعو لهم وحدهم، بل أدعو أيضًا للذين سيؤمنون بي عن كلامهم. فليكونوا بأجمعهم واحدًا... ليؤمن العالم بأنّك أنتَ أرسلتني...».

الانقسامات في الكنيسة تبقى من أهمّ ما



يشوّه صورة يسوع التي فيها، لذلك صلّى من أجل وحدة أبنائها، وهو ما انفكّ يدعوك ويدعوني، وهو يقرع على أبوابنا، كي نتابع الصلاة بكلّ ما أوتينا من صدق، ليسمح المسيحيّون للروح بأن يصالحهم.

إنّه لا بدّ لكنيسة المسيح من أن تختبر الجلجلة وتعيش على الصليب، تمامًا كما فعل مؤسّسها. وهي ستعيش صراعات في الداخل وصراعات من الخارج. وكما كان للمسيح أن يسهر في بستان الزيتون ويعرق دمًا... ويكلّل بالشوك... ويعلّق على الصليب، فهي أيضًا لا بدّ وأن تمرّ في جمّ من الآلام. ولكنّها تدرك في ذلك كلّه أنّها ستستمرّ في حمل الرسالة، وأنّ سلطان الموت لن يقوى عليها.

سوف تتابع رسالتها متخطّية كلّ العقبات التي تعترضها، أمن الداخل أتت أم من الخارج. وفي أحلك ساعاتها وهي تظهر في أوج ضعف أبنائها، من كبيرهم إلى صغيرهم، سيبقى الرجاء شعارها، ولن تسمح لنفسها بأن تقع في تجربة الخوف، ذلك لأنّها تؤمن بأنّها مؤسّسة على صخرة الله وأنّ يسوع «معها إلى منتهى الدهر».

وهي تدرك، كما المعلّم، وجوبَ أنْ تمرّ في الآلام والموت قبل أن تنبثق متجدّدة بروح قيامة سيّدها.



الفصل الخامس

## الجماعة المسيحيّة

قيل إنّ في وجدان كلّ إنسان حاجة إلى الدين. والحاجة إلى الدين في ظنّي هي في عمقها عودة إلى الله، بل أكثر من ذلك. إنّ كيان الإنسان بأسره يئنّ توقًا إلى خالقه ولن يهدأ له حال، كما قال أوغسطينس، إلى أن يستقرّ في الله.

كلّ منّا يختبر، ولو في لحظة من عمره، ذلك التوق إلى الله بعمق وقوّة ما ظنّ يومًا أنّهما جزء من كيانه. فنحسّ آنذاك بأهمّيّة حضور لله فينا ونشعر بنشوة ما عرفناها من قبل. ولكن سرعان ما تهجرنا تلك المشاعر وكأنّ حضور الله فينا قد تبدّد، فأمسى كنجمة حطّت في سمائنا ليلة ورحلت. بيد أنّنا كنّا نأمل أن تستمرّ فينا تلك النشوة فتكون بمثابة دفع لنا ينعش خدمتنا لله كلّ

يوم. نحن في حاجة إلى جماعة، إلى العيش في شراكة. ذلك أنّنا في طبعنا «اجتماعيّون» وفينا دومًا حاجة إلى أن نكون في علاقة بالآخر. نحن في حاجة إلى جماعة. نؤثر الركوع للصلاة معًا وكأنّ حضور الله يتكثّف فيما بيننا عندما نكون مجتمعين باسمه. وهذا في الحقيقة ما أكّده لنا المسيح بقوله: «عندما يجتمع اثنان باسمي أكون أنا الثالث بينهم».

نحن نبحث عن جماعة أحيانًا وكأنّنا نبحث عن ملجأ. ولكنّنا نقف على مقربة من الآخرين وننتظر، نتردّد وفي قلبنا وعقلنا مزيج من خوف من الجماعة وانجذاب إليها في آن.

عندما أفكّر كإنسان وأحسّ كإنسان ينتابني شعور بشيء من الوحشة، وتستيقظ في نفسي حاجة ملحّة إلى أن أُحِبّ وأن أُحَبّ، وأروح أتساءل في ما هو حسن وجميل، وما هو سيّئ وقبيح، فأدخل في صراع جديد وفي حيرة، والقلب في قلق يبحث عن سلام، والعقل في حيرة يحاول فهم الحقيقة. ولن يهدأ القلق في القلب إلى أن يبدّد العقل الشكّ، فينعما معًا في سلام مزدوج.



هذا الشعور الذي ينتاب العديد من بيننا فيه بعض ضياع، وهو يقول لنا كم نحن في حاجة إلى شعور بالأمان والحرّيّة، إنّها الحاجة إلى الحقيقة. تلك التي تفرح العقل وتشبع القلب.

ولكنّ الأمان والحرّيّة هما نتيجة موقف إيجابيّ أتّخذه من الحياة في كلّ صباح، وأعود فأجدّد الالتزام به كلّما شعرت بأنّ الشكوك عادت تراودني، وبأنّ شيئًا ما يشدّني إلى أسفل، إلى القلق والسلبيّة.

أرفع طرفي إلى الله وأعود أبحث عمّا ينعش حياتي. وفي لحظات من الشراكة معه أعود فأشعر بدفءٍ داخليّ وسلام في القلب. نحن في بؤسنا غالبًا ما نصبح روحانيّين، ولكن يجب ألّا تتحوّل الروحانيّة إلى برقع نحتمي وراءه، أو مخدّر ينقلنا إلى أجواء خياليّة أو وهميّة. وعلينا أن نحذر كلّ الحذر من أن يشوب تلك الروحانيّة رياء أو نفاق.

ما من إنسان يشعر بتوق إلى أن يكون في شراكة مع الله إلّا ويحسّ في الوقت نفسه بهشاشة كيانه البشريّ وضعفه أمام محبّة الله ورحمته.

«عندما يجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي أكون أنا بينهم».



ولا يمكنني يومًا أن أقول إنّني وجدتُ الله فأروح أسترخي وكأنّ ما حدث غنيمةٌ أقفل بابي عليها وأستبقيها معي إلى ما لا نهاية. فالله ألتقيه كلّ يوم في خدمة سخيّة وصدق في الحبّ، وحرارة في الصلاة. إنّ علاقتي بالله في حاجة إلى تغذية مستمرّة وتجدّد يوميّ.

والشراكة مع الثالوث الذي فيه تتجلّى في أسمى آيات الشراكة، وهي دعوة إلى عيش حياة الجماعة بكلّ أبعادها. الشراكة مع الله لا تكتمل ولا تصبح حقيقيّة إلّا إذا ما أثمرت شراكة ثلاثيّة الأبعاد، تمتدّ من الله إلى الإنسان فأخيه الإنسان، ومن ثمّ تعود إلى الله الذي هو الحبّ الأسمى.

هذه الشراكة هي من حياة الجماعة بمثابة القلب. وهي تمرّ من خلال الالتزام بتكوين الجماعة على أسس تتوطّد من خلالها الشراكة الثلاثيّة الأبعاد، لأنّها مبنيّة على روح من الأخوّة الصادقة التي لا تتحقّق إلّا من خلال تكثيف روح العدل المقرون بالحبّ، ذلك الذي يحترم حقّ كلّ من أفراد الجماعة في أن ينمو ويكبر بحسب قدراته، ووفق ما تمليه عليه حرّيّته، وما تتطلّبه الأمانة التامّة لمعتقداته...

نحن في حاجة إلى كنيسة جامعة، ونحن أيضًا في حاجة إلى جماعة محلّيّة تتجسّد فيها الكنيسة الجامعة، ويشعر الكلّ فيها بدفء العائلة المحبّة. وفيها يُكسر خبز الكلمة ليصبح غذاءً ينعم الكلّ به، فتكون الجماعة قلبًا واحدًا ونفسًا واحدة، يُكسر فيها خبز المحبّة لكلّ مَن به حاجة، «فلا يكون فيهم محتاج».

هذه الجماعة تتكوّن، في ما خصَّ المؤمن، حول الكنيسة المحلّيّة. والعديد من بيننا يجد نفسه على مقربة من الكنيسة، ويشعر بأنّها تدعوه، ولكنّه قد يحسّ، في الوقت نفسه، بشيء من التردّد في الاقتراب والالتزام، ولكنّه ما إنْ يقترب حتّى يبدأ يحسّ بشيء من الدفء والشراكة، إذ لا حياة للجماعة بمعزل عنهما...

وفي لحظة التردّد هذه، الممزوجة بتوق إلى الشراكة، علينا أن نتذكّر صدى صوت ذاك الغريب، وهو يقف على باب كلّ منّا يقرعه، وهو صوت يسوع يسائلني كما ساءل بطرس يومًا: «وأنت مَن تقول إنّي هو؟». جواب بطرس كان وما زال يدوّي في أرجاء الجماعة: «أنتَ المسيح ابن الله الحيّ». وهناك أيضًا صدى صوت



أندراوس، وكان يرقص فرحًا وهو يبشّر أخاه قائلًا: «لقد وجدنا المسيح». وهذا بعض صدًى لصوت الملاك المدوّي في سماء بيت لحم قائلًا: «لا تخافوا... وُلد لكم اليوم مخلّص...». أن تجد الجماعةُ المسيح فذاك أساس كيانها ومنبع هويّتها.

وصدى حضور المسيح المخلّص في قلب الجماعة نسمعه ونراه في جوابه لتلاميذ يوحنّا الذين قصدوه ليسألوه عن هويّته. وأتى ذاك الجواب عملًا لا كلامًا: «العميان يبصرون، والعرج يمشون، والبرص يطهرون، والصمّ يسمعون، والموتى يقومون، والفقراء يبشّرون... وطوبى لمَن لا يشكّ في...». الجماعة التي تبنى على المسيح لا بدّ وأن تبلسم وتعزّي وتشفي...

وهذا الحضور يعيدنا إلى نائين فنسمع صوت يسوع يأمر الميّت فيستجيب: «يا فتى، أقول لك: قم». ويقودنا مجدَّدًا إلى بيت عنيا حيث ما زالت دعوة يسوع للعازر تتردّد: «يا لعازر، هلمّ فاخرج». وهذا الحضور أيضًا ينقلنا إلى كفرناحوم حيث امتزج شفاء النفس بشفاء

الجسد: «غُفِرت لك خطاياك». وها هي الحياة أمامك مجدَّدًا «قم فاحمل سريرك واذهب إلى بيتك».

وهذا الحضور يذكّرنا أخيرًا بأنّ يسوع شاء أن يكمل تلاميذه المسيرة «فيجترحون ما اجترح من الآيات». وقرّر أيضًا أن يتماهى معهم، فيكون أنّ «مَن سمعهم سمعه هو، ومَن قَبِلهم قَبِله هو...». إنّ حضور كلّ فرد في الجماعة مرشّح، بل هو مدعوّ إلى أن يأتي صدًى أمينًا لحضور المعلّم، فيحسّ مَن يسمعه بأنّ في صوته حقًّا نغمة من صدى صوت المعلّم.

علينا أن نتذكّر هذه الأمور وسواها ونحن نتردّد ونطرح على أنفسنا أسئلة متعدّدة عن حقيقة ذاك الذي يقف على أبوابنا يقرعها.

لا يمكن لهذا الذي يشفي كما شفى يسوع، ويُقيم من الموت كما فعل، أن يكون شخصًا ماكرًا أو مسيحًا دجّالًا. إنّه المخلّص وهو «ابن الله»، وهو الباب الذي يدعوني إلى أن أدخل الحياة، ولو أنّ ذاك الباب يبدو لي ضيّقًا أحيانًا... ومن المستحبّ جدًّا أن يكون هذا الباب كنيستي المحلّيّة التي أدعوها رعيّتي،

لتكن الجماعة قلبًا واحدًا ونفسًا واحدة يُكسر فيها خبز المحبّة، «فلا يكون بينهم محتاج» فتزهر الجماعة وتثمر فرحًا أساسه حضور الله المكثّف فيها.

بالرغم ممّا قد يكون أمام ذلك الباب من حواجز أشعر وكأنّها تمنعني من الاقتراب، عليّ دائمًا أن أتذكّر أنّ يسوع ما اختار أفضل الناس من المنظار البشريّ ليكونوا خدمة كنيسته وخلفاء رسله.

قد يمنعني أحيانًا من الاقتراب شعوري بأنّ ضعفي سوف يحول دون التزامي بما هو مطلوب ممَّن يدخلون هذا الباب، إنّه لأكبر بكثير ممّا يمكنني أن أعطي. وماذا سيقول عنّي الناس؟

عليّ أن أتذكّر دائمًا أنّ الله هو الذي يدعو والروح القدس يعضد ضعفي ونعمة الله تكفيني...

يخبرنا القدّيس متّى كيف أنّ يسوع، بعد أن أشبع آلاف الناس من خمسة أرغفة وسمكتين، طلب إلى تلاميذه أن يركبوا السفينة ويتقدّموه إلى الشاطئ المقابل من بحر الجليل ليأخذ بعض الوقت في خلوة للصلاة.

«وعند آخر الليل جاء إليهم ماشيًا على البحر. فلمّا رآه التلاميذ ماشيًا على البحر، اضطربوا وقالوا: «هذا خيال»، ومن خوفهم صرخوا. فبادرهم يسوع بقوله: «ثقوا، أنا هو،



لا تخافوا». فأجابه بطرس: «يا ربّ، إن كنتَ إيّاه، فمرني أن آتي إليك على الماء». فقال له: «تعال».

عندما يهبط من حولي الظلام أحيانًا، أو تهبّ العاصفة، أو يخالجني الشكّ... ها هو يقول لي: «ثق، أنا هو، لا تخف... تعال». وعندما ترهقنا المشاغل وتتراكم علينا الهموم ونحسّ كأنّنا في ضياع وعلى وشك الانهيار... فها هو يهمس في آذاننا: «تعالوا إليّ أيّها المتعبون والثقيلو الأحمال، وأنا أريحكم...». تعالوا إليّ بكلّ ثقة لأنّي في الحقيقة أنا هو الذي يدعوكم ويداي ممدودتان...

لمّا سمع بطرس صوت يسوع يدعوه «نزل من السفينة ومشى على الماء آتيًا إليه. ولكنّه خاف عندما رأى شدّة الريح، فأخذ يغرق، فصرخ: يا ربّ، نجّني».

نعم يا ربّ نجّني من الخوف الذي يتملّكني عندما تشتدّ الرياح في داخلي ومن حولي. نجّني من الخوف الذي يخلقه في نفسي الشكّ في قدرتي على مواجهة المصاعب، والشكّ في إيماني. نجّني من كبريائي وحرّرني من الخوف

ممّا قد يقول الآخرون عنّي. وإذا ضعفتُ فهبني أن أقبل ذاتي مع ضعفي لأنهض مجدَّدًا وأنطلق.

«فمدّ يسوع يده لوقته وأمسكه وهو يقول له: «يا قليل الإيمان لماذا شككت؟». ولمّا ركبا السفينة، وسكنت الريح، فسجد له الذين في السفينة وقالوا: «أنتَ ابن الله حقًّا»».

أنا أعرف يا ربّ أنّ يدك دائمًا تمسك بيدي... أنا أؤمن يا ربّ فزدني إيمانًا... إنّ إيمان هؤلاء الناس واعترافهم بمثل هذه الكلمات إنّما يشعرني برهبة ممزوجة بفرح وسلام، لشعوري بأنّك غدوتَ قريبًا هذا القرب كلّه منّي.

منذ عشرات السنين وأنا أحاول السير في نهج يسوع المسيح. وقد حدث لي أن عبرتُ في أنفاق من الشكّ أحيانًا، وتنقّلتُ أحيانًا أخرى بخفّة على قمم من الطمأنينة الداخليّة والسعادة التي يتعذّر عليّ وصفها... وكان يخيّل إليّ تارة أنّني أسير على هدي نجم يلمع في سمائي وينير لي الطريق، وحينًا آخر كنتُ أحسّ بشكّ وكأنّ النور الذي يهديني قد غدا ظلامًا... وغالبًا ما كنتُ أجد آنذاك في الجماعة قوّة جديدة، هي من قوّة مَن هو في قلب كلّ جماعة يصغي



ويشجّع ويغفر...

أمّا الآن وقد بلغتُ حيث أنا، ومسيرتي تقارب قمّتها، فإنّني أشعر بأنّ تفاصيل ما مررت به لم تعد مهمّة. فالمهمّ حقًّا هو أنّني ما أضعتُ ذلك النجم في حياتي، ولا هو بخل بنوره يومًا عليّ، أوحيدًا كنتُ أسيرُ في رفقته أم في قلب الجماعة. وأراني الآن مدركًا حقًّا مَن أحببتُ؛ إنّه المسيح ابن الله الحيّ.